

خطيئة لا تغتفر



طبعة 2026

حسن أويب كوفاتي

اسم الكتاب : خطيئة لا تُغتفر
تأليف : حسن أديب كويفاتي
تنسيق داخلي : د. راشد تميم
تصميم الغلاف : إسلام تلي
رقم الإيداع : 2026/7790
الترقيم الدولي : 978-977-6955-41-7
الناشر : اسكرايب للنشر والتوزيع
بالتعاون مع أدابيا

للتواصل معنا

 scribe20199@gmail.com

 +201005079256

 +201099727510

 دار اسكرايب للنشر والتوزيع 



جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار اسكرايب للنشر والتوزيع
لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة
بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

الإهداء

إلى ذاك الرجل الذي رحل قبل أن يرى كيف كبرت أحلامي، لكنّه بقي حاضراً
في كل خطوةٍ خطوتها وكأنّ الغياب لم يكن يوماً قادراً على انتزاعه منّي، أبي "أديب
علي كويفاتي". إلى تلك المرأة التي مرّت في حياتنا كطمأنينةٍ دائمة ثم تركت
في أرواحنا فراغاً لا يُملأ، خالتي "أماني بلالي". "ارقدا بسلام... فبعضُ الأحبة
لا يموتون، بل يتحولون إلى ذكرى تسكن القلب إلى الأبد. وأخيراً... إلى أُمي، إلى المرأة
التي كانت دائماً أقوى من تعبها، وأحنّ من الحياة نفسها، "هنادي السيروان".
لأجلكم كتبت هذه الصفحات، ولأجلكم... سأحاول دائماً أن أكون أفضل.

ولولألفِ مرةٍ أخرى

مقدمة:

في أعماق العلم، حيث تتداخل الحقائق والظنون، يتفتح أمامنا عالم لا محدود من الاحتمالات، مليء بالعوالم المتوازية التي تسكنها أرواح تبحث عن الخلاص ولا تجد. ثلاث عوالم متفرقة لكنها مرتبطة بخيط رفيع، لا يمكن للعين أن تراه ولا للعقل أن يفسره في أحدها، هناك محقق يدعى فرانك، ينتقل بين الحزن والعدالة في بحث لا ينتهي.

وفي عالم آخر يعيش طبيب نفسي يدعى جون، يداوي ألام الآخرين وهو غارق في ألامه. وفي الثالث نجد ستيف أستاذ الكيمياء عازب، يعيش في وحدة لا سبيل لانقضائها يعتقد انه بعيد عن الجميع ولكنه في الحقيقة غارق في صراع أكبر مما يدرك. كل واحد منهم يرى نفسه في دائرة مغلقة، ولكن لا يدرك أنهم جميعا مسجونون في حلقة أبدية حيث كل واحد منهم سيعيش مصير الآخر في لحظة ما. الزمن الذي نظن بأنه خط مستقيم، ليس الا وهما كبيرا كخيال لا نهاية له. نحن نعيش في ماضي حاضرمستمر نغرق في ذكرياتنا بينما ننتظر الغد الذي لن يأتي فما من فرق بين الأمس واليوم، بين الماضي والمستقبل، فكلها متشابكة في دوامة لا تنتهي، كما لو كانت لحظاتنا كلها حلقة واحدة نعيدها ونكررها دونما فائدة. كما قال أينشتاين "كل شيء متصل" ولكننا لا نعلم كم نحن ضعفاء في هذا الاتصال، ولا كم نحن غارقون في هذا البحر العميق الذي لا شاطئ له. حيث لا شيء يتوقف ولا شيء يتغير، فقط نعيد الدوران حول أنفسنا ونتوقع أن يجد كل واحد منا حلا للغز الذي لا نهاية له.

فرانك:

كانت الأصوات تتدفق في رأسه كما تتدفق المياه الأسنة في كهف مهجور، حاملة معها
صدى لا ينتهي لعالم يعرفه.

أصوات متشابكة، متداخلة، كأنها ذكريات لا تخصه أو تخصه أكثر مما يجب.
تصطدم بجدران عقله المنهكة، ثم تنسحب فجأة حين يقتحم الضوء غرفة فرانك،
ذلك الضوء الذي لم يعد يميز بينه وبين العتمة فكلاهما باتا أعداء.
فتح عينيه بصوت يشبه أنين جثة تسحب من جوف الأرض:
" أين أنا "

خرجت الكلمات مكسورة، غارقة في رغبة خفية بالموت.
" تشارليز هل انت هنا "

تقدم صوتها بحذر، كما لو أنها تقترب من حيوان جريح:
" ما بك يا فرانك؟ حلم آخر؟ "

سقط الصمت بينهما بثقل موت ثالث في غرفة ضيقة.
هو لم يعد يثق في حدود الواقع.

قال بصوت خافت، يكاد يكون همسا من عالم آخر:

" تشارليز كل ليلة أشعر أنني أموت في حياة ليست لي، اسمع أصواتا.. أرى أماكن لا
أعرفها... ماذا يحدث لي؟ "

اقتربت منه، لكن المسافة بين عقليهما كانت أبعد من أي كون:

" الأحلام ليست مجرد صور يا فرانك... انها الحيوانات التي يتركها العقل خلفه،
الحيوات التي تهرب منه ثم تطارده "

نهض ببطء، وكأن الأرض تسحب من تحت قدميه.

التقط مسدسه ولكنه لم يمسه كمحقق... بل كرجل لا يثق بنفسه.

همس:

" لا تنتظريني على الغداء.. لا أعلم أي نسخة مني ستعود ... هذا ان عادت أصلا "

قالت بصوت محمل بخوف لم تقله:

" حسنا ... يا فرانك "

جون

ارتطمت طلقة نارية بداخل رأس جون قبل أن يسمعها في حلمه.
حلم؟ أم ذكرى؟ لم يعد يعلم، استيقظ وهو يلهث كمن كان يغرق في بحر بلا قاع.
ضغط على صدره، شعر بخفقة قلبه تهوي الى الظلام:
"لماذا لا تنتهي هذه الحياة؟ لماذا الموت أوضح من تنفسي؟
أقتلونني.. فقط خلصوني"
ارتفع صوت كاترينا ولكنها لم تجرؤ على الاقتراب:
"جون! هل رأيت ذلك الكابوس مجددا؟!"
فتح عينيه وكأنهما غلقتا منذ قرن، نظر اليها بعينين زجاجيتين:
"كاترينا.. أنت هنا؟"
ردت بحزم يرتجف في أعماقه:
"نعم أنا! لا تجعل هذا الصوت يغلبك مجددا "
لكن نظراته لم تكن عليها ... كانت على شيء خلفها.. شيء لم تلتفت لترى فراغه.
قال بصوت متقطع:
"هناك حياة أخرى يا كاترينا، حياة أموت فيها، أسمع صوت الطلقة وكأنها تخترق
جمجمتي كل ليلة "
صرخت:
"كفاك! لم تعد تفرق بين الحلم والواقع! هذا المرض يبتلعك!"
ابتسم ابتسامة شاحبة لا روح فيها:
"المرض؟ المرض الحقيقي هو أننا نظن أن هناك واقعا واحدا، بينما الحقيقة تعيد
نفسها بلا رحمة "
نهض وهو يمسح العرق عن عنقه، كمن يشعر بيد خفية تمسكه من الخلف:
"لن اذهب الى جلسة ذاك المدمن، لا أريد سماع صرخات الآخرين اليوم صراخي
يكفيني "
أجابت بخفوت يشبه التسليم:
"حسنا يا جون "

ستيف

" أقتلونني، أرجوكم أقتلونني "

أرتطم الصوت برأس ستيف كسكين يضغط على عظمة جمجمته.
الصوت لم يكن مجرد ذكرى، كان يتردد داخل رأسه يزداد وضوحا، كأن صاحب الصوت يقف عند سريره.

استيقظ وهو يرتجف، ينظر للظلام وكأنه يتوقع أن يخرج منه أحد.
تمتم بلهات متقطع:

" كابوس ... ليس الا كابوسا ... صوت مريض ، لا انه ليس صوته فقط ، انه صوتي أنا!"

حاول أقناع نفسه، لكنه شعر بنبض ثقيل في صدغه، وكأن عقله يحاول الانفصال عن رأسه.

المكان حوله بدا غريبا، مألوف بشكل مزعج، وكأنه استيقظ في غرفة لم ينام فيها.
أغمض عينيه بقوة، ولكن الصوت أقترَب أكثر...
صار همسا خلف أذنه:

" أقتل نفسك، أرجوك حررنا.."

قفز من سريره وهو يلهث، ولم يجرؤ على النظر خلفه.
الأحلام لم تكن مجرد أحلام
كانت الحيوانات التي انشطرت عنهم ثم عادت لتلتهمهم.
ثلاثة رجال ينهارون ببطء، كل منهم يرى موت الاخر في أحلامه، ولا يعلم انه هو الآخر.
أحدهم ينام على وحدته ...
والآخر على خوفه ...

والثالث على جريمة لم يعترف بها بعد

أما زوجاتهم ... فكن انعكاسا لقدر واحد يتكرر بوجوه مختلفة، وينتهي دائما بالوجع نفسه.



" الفصل الأول "
(فصل فرانك)

كان فرانك طويل البنية، عضلاته مشدودة ومكتسبة من عمله كمحقق لكنه يتسم بالحركة السريعة والمرونة رغم شدة قوة شخصيته، يملك وجهها استثنائيا، زاويته حادة وجمهته عميقة، مما يضيف الى ملامحه قسوة واضحة.

عيناه زرقاوان عميقان تكاد تظهر الشكوك والتعب المزمّن من صراعاته النفسية. شعره مرتبا دائما حتى في أوقات الضغط النفسي، بني داكن اللون قصير جدا لا يترك له فرصة للراحة .

يرتدي زي الشرطة بشكل غير رسمي في معظم الأحيان، او ملابس معتادة أكثر رسمية غالبا بلون داكن، وهو ما عكس طبيعته الجادة والمكتئبة في ذاك اليوم "قتل أول"

الدموع، القسوة، المعتقدات، الألم النفسي، وذروة النشوة. كلها تجمعت في جسد واحد، في عقل واحد، في روح تأكلت حتى الهشاشة. كان المجرم يفتح عينيه ببطء، وكأنه ينهض من حفرة مظلمة لا قرار لها، الضوء الباهت في المصنع المهجور يرتجف على الجدران المتآكلة، والدماء اليابسة التي لوثت الأرض تشهد على تاريخ من العنف المنسي.

كان مربوطا الى كرسي خشبي، حباله البنية تشد معصميه كأنها تنفذ فيه حكما قديما. اقترب فرانك، وجهه مثقل بظل لا يشبه ظل البشر:

ما بالك أيها الأحمق؟

نعم كل ما ذكر اجتمع فيك .

دموع زائفة ، قسوة عمياء ، معتقدات مهشمة ، ألم نفسي ، ونشوة قاتل يظن نفسه مسيرا لا مخيلا

أرتجف المجرم محاولا التبرير، صوته مكسور كمن يشهق تحت الماء:

سيدي فرانك ... صدقني ... لست انا.

ذاك الوحش المنتشي الذي في داخلي هو من يدفعني، هو من يأمرني، انا مجرد جسد يتحرك بما يملئ عليه.

أقرب فرانك أكثر، وانحنت ملامحه بين الغضب والشفقة المميّنة:

لا تتعب نفسك، في علم الأجرام، لا يلتفت لقصص المساكين.

الأفعال هي من تتكلم، وأفعالك واضحة، أنت المحرض، وأنت المنفذ، وأنت الجاني والمجني عليه.

أما ذاك " المنتشي " الذي تتحدث عنه؟

فهو أنت، أنت لا غير.

بدأ الرجل بالبكاء، كأنه ينهار من الداخل:

سيدي، أنا عبد مأمور، مأمور بترهاتي وبسخطاتي وبالضجيج الذي يخرج من داخلي بعدما ينهشني ذاك المخدر اللعين، صدقني، لا املك السيطرة.

رفع فرانك يده فجأة، بنفاذ صبر ممزوج بالقسوة:

كفاك عبثا أيها القاتل المدمن، أصمت وأستمع لحكم المحكمة، محكمتنا التي لا تعرف الاستئناف ولا التسامح مع الضياع.

أخرج ورقة من جيبه، صوتهما وهي تفتح كان كصير باب يغلق على حياة كاملة.

يحكم عليه بالموت، وينفذ الحكم فورا، قرارا وجاهي غير قابل للطعن أو المراجعة.

ارتجفت يد فرانك وهو يستل مسدسه، وكأن الأوامر التي يقرأها أثقل من روحه نفسها، أقترب ببطء، ووجهه قد فقد كل ملامح الرحمة.

أنطق بالشهادتين يا بني ...

قالها بصوت منخفض، لا يشبه صوت قاض ولا صوت جلاد، بل يشبه صوت أب يدرك أنه سيقتل أبنه بيديه.

رفع المسدس

العالم توقف

الهواء توقف

والمصنع المهجور أصبح شاهدا جديدا على مأساة أخرى تضاف الى سواد هذا الكون

(عودة فرانك)

كان المطرينهال على وجهه كصفعات متتالية، وكأنها عقاب سماوي لا يرغب بالتوقف.

خرج فرانك من ذلك المصنع المهجور، وروحه مثقوبة بالآم لا يملك لها اسعافا.

لم يشعر بثقل جسده، بل بثقل القتل، بثقل تلك اللحظة التي سمع فيها ارتجاج الرصاصة داخل جمجمة الضحية.

عندما وصل الى منزله فتح الباب بهدوء مريب، وكأن المكان يعرف مسبقا ما اقترفته يداه.

رأى تشارليز جالسة في العتمة، نور خافت يسلط على وجهها، ليظهر ملامح امرأة تعرف جيدا بأن رجلا محطما قد عاد اليها .

" كانت تشارليز امرأة تملك وجهها مربعا بعض الشيء، مع ملامح حادة وحاجبان كثيفان تجعلها تبدو صلبة، عيناها كبيرة وشاحبة، مغطاة بظلال من الحزن والقلق، شعرها بني داكن، قصير وقليل التموج، يعطي انطبعا بالصرامة والحزم، تملك قامة متوسطة تتسم بحركة واثقة، وإن كان هناك شيء من التعب النفسي يخفف من ذلك، تميل الى الملابس ذات الألوان الداكنة، وتختار دائما الأشياء التي تشعرها بالراحة مع قليل من البساطة."

أقترب فرانك منها، وما أن رآها بوضوح حتى أنهار أمام قدميها، كطفل عاد من حرب لم يختار خوضها.

قتلته يا تشارليز

خرج صوته متهشما، كأن شيئا من صدره قد أنكسر للأبد.

احتضنته، لكن العناق كان باردا.. باردا حد الوجع، كأنها تحاول ضم رجل لم يعد موجود.

فاحت منه دموع ساخنة، أرتجف صدره وهو يضغط بوجهه على كتفها.

لم أعد احتمل يا تشارليز.. لم أعد..

لكنها لم تجب، فقط وضعت يدها على قلبه، ثم رفعت وجهه، وقبلته قبلة طويلة، وكأنها تحاول إعادة روحه الميتة الى صدره.

تعب جسده من الألم فاستلقى قريبا، وأغمض عينيه..

غير مدرك أنه سينحدر الآن الى عالم أعمق من الألم.

" الحلم "

لم يكن هناك أرض ...

لم يكن هناك زمن ...

كان يقف في ممر ضيق، جدرانه ينبعث منها بخار رمادي، وأضواء صفراء تومض بلا انتظام.

خطواته تترك آثار دامية على الأرض، رغم أنه لم يكن حافيا. الهواء كان ثقيلا.. لدرجة انه بالكاد يستطيع التنفس.

ثم سمع صوتها

فرانك ...

التفت.

كانت تشارليز واقفة في نهاية الممر.

لكن وجهها كان شاحبا بصورة لا تشبه بشريا حيا.

اقترب خطوة ...

اختفى نصف وجهها في الظلال.

"فرانك ... هناك فتاة قد قتلت."

كان صوتها غير طبيعي، مرتجفا، وكأنه صادر من أجهزة معدنية معطلة.

ارتجف جسده.

"ماذا؟

من؟

أين؟"

لم تجب.

فجأة تغير المشهد.

وجد نفسه يقف وسط غرفة بيضاء فارغة ...

ثم ظهرت أمامه جثة فتاة لا يرى ملامحها، رأسها مغطى بشعر أسود منسدل، ودماء

تنتشر تحت جسدها كظل ينمو.

تشارليز سمعته وهو يلثم لكنها لم تظهر.

بل سمع صوتها فقط، يأتي من فوقه، من تحت الأرض، من داخله:

"فرانك ... انها قتلت ..."

أنتبه، الحقائق ليست كما تراها ...

أرتفع صوتها فجأة، صار حادا، منذر بالخطر:
"فرانك ... استيقظ ... استيقظ ... استيقظ ..."

"من حلم إلى حقيقة"

فرانك.. استيقظ الهاتف يرن.. أنه ميرفي.

يقول، ان هنالك فتاة قتلت ...

شعر بالدم يغادر وجهه.

الحلم ... كان يتحقق.

التقط الهاتف بيد مرتجفة:

نعم...؟

سيدي، عليك الحضور فورا لدينا جثة لامرأة في الثلاثين من عمرها.

أغلق فرانك عينيه للحظة طويلة ...

كما لو انه يقف في قاع نفس الممر الذي راه في الحلم.

"أنا في طريقي"

وقف ثم أخذ مسدسه، وصوته بالكاد مسموع:

"سأعود، تشارليز ..."

خرج، والأفكار تهش رأسه حتى وصل الى مكان الجريمة.

كانت الجثة أمامه ...

مشوهة بالكامل.

الدم يملأ الأرضية، والمشهد مطابق للغرفة البيضاء في حلمه، حد الرعب.

اقرب ميرفي:

"لا بصمات يا سيدي ... ولا أي أثر"

ضحك فرانك ضحكة قصيرة، مريرة، تشبه انكسارا داخليا:

طوال مسيرتي لم أستفد من البصمات.

وكأنه مكتوب علي أن أفكر ... وأن لا أرتاح.

نظر الى الجثة، وقال بصوت خافت، مسكون بالعذاب:

" هؤلاء الذين قتلوا، والذين قُتلوا، جميعهم يبحثون عن السماء التي نبحث عنها ...
لكن الطريق واحد ... مظلّم.. قاسي ... لا يرحم.

غطى وجه المرأة بقطعة قماش بيضاء.

ثم همس:

" ارقدي بسلام "

وبينما كان يغادر، شعروكأن الظلام يبتلعه من جديد.
توقف فرانك للحظة، استند بظهره الى الجدار الإسمنتي المبلل، وشهق بصوت خافت
بدا وكأنه يهرب من أعماق صدر مثقوب.

اقترب ميرفي منه بخطوات حذرة:

"سيدي... هل انت بخير"

لم يجيبه فرانك فوراً.

رفع رأسه ببطء، وصوته خرج مجاهداً:

ميرفي... أكمل الأوراق بدوني الليلة.

أشعر... بثقل لا أستطيع حمله الآن.

سأغادر قبل أن يبتلعني هذا المكان.

هزميرفي رأسه موافقاً، رغم ان القلق فضحه.

قائلاً:

حسنًا سيدي

" لكن لا تنسى موعد المصحة غداً "

خرج فرانك من موقع الجريمة، أصابعه ترتعش وهو يخرج هاتفه من جيبه.

ضغط على رقم تشارليز

رن الهاتف مرتين قبل ان يأتي صوتها المرهق:

" فرانك ... "

زفروكأنه يغرق ثم قال:

حضري العشاء ... ارجوك

لا أريد ان أكل ... بل أن أراك فقط، سأتي حالا.

حاضر ... فقط عد لي سالما.
أغلق الهاتف دون أن يجيب، قاد سيارته عبر الشوارع المبتلة، وكل مصباح يمر كان
يبدوله كعين تحديق فيه وتعرف ذنبه.
عندما وصل الى المنزل، وجد الباب مفتوحا قليلا، ورائحة الطعام الدافئ تتسلل الى
صدره كالنجاة الوحيدة المتبقية.
كانت تشارليز تقف في المطبخ، شعرها منتشر يلامس كتفها، وملامحها متعبة لكن
دافئة ... دافئة بما يكفي ليشعر أنه يعود من جحيم لا قاع له.
رفعت رأسها نحوه:

"فرانك ...؟"

لم ينتظر.

اقترب منها، جذبها اليه، وضمها وكأنها الشيء الوحيد الحقيقي في هذا العالم المظلم.
وضعت يديها على وجهه، ومررت أصابعها على خديه المنهارين، ثم قبلته قبلة هادئة،
ثقيلة بالطمأنينة التي كان يبحث عنها.
جلسا معا على الطاولة.
لم يتحدثا كثيرا.
كانت اللحظات بينهما تتكلم:

عيون تراقب جروحه، ويد تلامس يده، ونفس متعب يختلط بأخر أكثر تعباً.
بعد العشاء، تمدد قريبا على السرير، رأسه فوق صدرها، يسمع نبضها كأنه الحبل
الوحيد الذي يربطه بالحياة.
همست له:

"نم ... أنت مرهق يا فرانك."

أغلق عينيه، وانزلت روحه ببطء نحو الظلام ...
لكن هذه المرة كان الظلام أكثر ليونة، لأن يدها كانت فوق قلبه مباشرة.
وسقط في النوم.
نوما ثقيلا ... بلا ملامح ... بلا أصوات ... وكأن عقله قرر أخيرا أن يمنحه ليلة واحدة
من الصمت.

لكنه لم يكن كذلك

"عتاب أليم وموعد منسي"

صحوة بسؤال كالمعتاد:

تشارليز أهذه أنتي ...؟

"تجيب بقلق واللؤم والتعب باد على محياها، وكأنها لم تنعم بالنوم ليلة أمس:"
فرانك أرجوك، إنك تفزعني ببكائك هذا، لقد أمضيت ليلتي الماضية مستيقظة بسبب
نحيبك وعدم استيقاظك، ماذا دهاك يا رجل؟، ماذا حل بك؟
لم تكن هكذا، لم تكن كذلك، الى أن بدأت هذه الأحلام منذ سنتين ولم تفارق ليلاك
أبدا...

"الدموع بدأت تنهمر من عينيها على خديها كمطرينذر بالشؤم، عيناها التي كانت نذيرا
من الجحيم لإغواء الملائكة فما بالكم بشيطان مثلي، مرددة:"
أرجوك أرحم عقلي يا هذا لقد سئمت منك.

صدقني لقد سئمت الحياة معك، فحياتي برفقتك أصبحت أشبه بأن تكون بمصحة
نفسية، وأنت العاقل الوحيد.
"تهمم الكلمات في رأسه"

صدقوني لقد كان كلامها جارحا لي ولقلبي ولكنها كانت تتكلم الصدق، فالحياة معي
كانت أشبه بتلك المصحة النفسي ...
مستدرسته أفكاره، فزعا من الفراش.
ماذا؟

يا إلهي المصحة عندي اليوم تحقيقا مع فتاة في المصحة ...

رنين هاتف ...

مصاحبه أجابته ...

نعم ميرفي؟

سيدي اين أنت نحن في انتظارك منذ أكثر من ساعة ...

نعم ... نعم ... أنا في طريقي

مغلق الخط.

يا إلهي أنها الحادية عشر لقد تأخرت، تأخرت.

يشيح بنظره نحو تشارليز.

يا إلهي ما هذه النظرات.

كانت ترمقه بنظرات تعلوها الاستياء والغضب وبعض من الغيرة ... قائلة له:

أنت دائما هكذا، عملك أهم مني، ومن حديثي ومشاكلي حتى، عموما ليتني كنت تلك الفتاة التي ستقيم معها جلسة استجواب اليوم، اقلها سأكون أحدا تهتم بأمره.

" تعود اليه أفكاره التي قاطعها ميرفي، يا إلهي لقد عادت لكلامها الجارح "

عزيزتي اقسم لك بأنني لن أتركك غاضبة هكذا، لكنني الآن غير قادر على مواساتك،

أرجوك هل سامحتني هذه المرة وأكون لك من الشاكرين؟

أذهب، أذهب أنت هكذا دوما لن تتغير، أذهب فقد سامحتك.

يجيبها مبتسما ابتسامة يعلوها الحزن:

أحبك، حقا أحبك.

مرتديا ثيابه، مقبلا رأسها، اخذ مسدسه مرددا وعوده القدسية كعادته، وخارج من المنزل.

كان فرانك يقود سيارته نحو المصححة وكأن الطريق يمتد بلا نهاية، وكأنه مشواره الأخير

داخل عمله، كل حجر يلمع تحت المطر كان يذكره بالحلم الذي أستيقظ منه ...

أو الذي هرب من أحداثه، شيء ما في داخله كان ينهار بصمت، كجدار متهالك يوشك أن يسقط من تلقاء نفسه.

ارتجفت يداه على المقود.

لم يعد يثق بواقعه.

الأحلام تتسلل الى يقظته، يراها في المرايا، على أرصفة الطرق، في وجوه الناس.

عندما وصل الى المصححة، كان ميرفي ينتظره بوجه محتقن بقلق لم يحاول اخفائه.

سيدي ...

الأطباء يقولون إنها مجنونة تماما، وإن تأخرنا أكثر ستفقد السيطرة، قالها بقلق لكن

فرانك لم يعد يخاف الجنون، لقد بدأ يشك أنه ينتهي اليه..

أهدأ يا ميرفي ... لو جلسنا لدقائق أخرى سيشخصونك أولا.

ثم ضحك ... ضحكة قصيرة، مشروخة، خرجت منه رغما عنه.
ضحكة تشبه غصة.

حاضر سيدي ...

دخل فرانك الممر الطويل، كل خطوة فيه كانت كأنها تغوص داخل بئر.
كان رقم الغرف يبدأ من الواحد وينتهي عند المئتان وسبعة، وكان رقم غرفتها ثلاثة
عشر بعد المئتان وسبعة الأولى من ترتيب الغرف وفي الثقافات الإسكندنافية يدل رقم
ثلاثة عشر على الشؤم، لأن الاله لوكي كان الضيف الثالث عشر الذي وصل الى وليمة
العشاء في فالهالا، وفي الثقافات المسيحية يدل على العشاء الأخير الذي كان يجلس
فيه يهودا الذي خان المسيح وهو الضيف الثالث عشر الذي وصل الى المأدبة.
باختصار كان الرقم يشبه لعنة تفتح بابها بنقرتين.
فتح الباب..

وبقي للحظة واقفا عند العتبة، كأنه يخشى أن يتسرب ما بداخله اليها.
"اعتراف نواه"

كانت نواه جالسة على السرير.
قدمها ترتعشان، ووجهها مزرق بالكدمات.
شعرها الأسود الفوضوي، وعينيها رغم اتساعهما فارغتان تماما، كأنهما نافذتان تطلان
على فراغ آخر.

جلس فرانك أمامها، وضع ملفها على الطاولة، أنتظر أن ترفع رأسها، لكنها لم تفعل.
فقال بهدوء متردد:

"نواه ... كيف حالك "

لم تلتفت اليه.

وبعد صمت طويل أثقل صدره، قالت فجأة

أحقا تسأل عن حالي؟ بعد كل هذا؟

ثم انفجرت بالضحك ضحكة خالية من الحياة، ضحكة كأنما خرجت من جرح

غطت نصف وجهها بكفها وأمالت رأسها نحوه وابتسامة ملتوية تشق شفيتها:

أنظر الي ... بربك هل أبدو جميلة كما يقولون؟

ضحكت مرة أخرى.
ضحكة تشبه سقوطا في هاوية.
وهنا ... شعر فرانك لوهلة ان الغرفة تضيق عليه، كأن الهواء من حوله صار سميكاً كالطين
وفي رأسه صدى صوت قديم..
صوت الحلم الذي لم يعد يتذكره.
أبتلع ريقه بصعوبة:
قصي علي ما حدث من فضلك.
أجابت:
هل تريد الحقيقة يا فرانك؟
أم تريد القصة التي تسهل عليك كتابة تقريرك؟
أقترب منها دون أن يشعر:
" الحقيقة ولا شيء غيرها "
توقفت نواه عن الضحك.
انطفأت ملامحها دفعة واحدة كأن أحدهم سحب القابس الموجود في روحها.
رفعت عينها إليه ...
عينها اللتين لم تحملا أي أثر للحياة، وقالت بنبرة باردة حدها كحد المشرط:
الحق يقال سيدي لو كان بيدي حيلة لما قتلت رجلا مثله.
لم اتلخ بدمائه الا رحمة برغبة لم يفهما أحد.
أرتجف جفن فرانك دون أرادة منه كأن الكلمات أصابت عصبا قديما في رأسه، عصبا يعرف هذا الصوت ... هذا المنطق ... هذه الهوة التي تبرر فيها الخطيئة باسم الخلاص.
تابعت نواه، وعيناها معلقتان في فراغ لا يخص الغرفة ولا يخصه:
كنت أوجه مسدسي الى موضع يضمن أن يشعر بالرصاصه وهي تستقر في أحشائه ...
تعتصر جوفه، تعلمه الألم قبل أن تعلمه الموت.
كنت أريد أن أحفر في ذاكرتي عينييه وهما تلفظان أنفاسه الأخيرة..
أردت شاهدا داخليا لا يموت.

صمتت لحظة.

صمت ثقيل كأن الغرفة حبست أنفاسها معها.

وانتظرت ...

تضرعا، بكاء، توسلا، مقاومة ...

أي شيء يقنعي أنني أسلبه حياة تستحق القتال.

لكن صمته.. خنوعه.. كانا أكثر فتكا من أي صراخ.

خفض فرانك رأسه قليلا.

تذكر وجوها كثيرة ... وجوها رأتها فوهات أسلحته قبل أن ترى الرحمة.

قالت، وصوتها بدأ يعلو لا غضبا، بل نشوة سوداء:

صرخت فيه..

صل ... صل أيها الخنزير!

ألا فخير لك أن تموت قاتلا نادما على أن تموت قاتلا ملحدا..

لعل من في السماء يرأف بحالك.

رفعت حاجباها، ونظرت الى فرانك نظرة فاحصة، كأنها تجري عليه تشريحا حيا:

أيمكنك تصور رد رجل في موضعه يا حضرة المحقق؟

لم يجب.

لم يستطع.

كان يشعر أن السؤال موجهها إليه ... لا الى القتل.

تابعت بنبرة هادئة مرعبة:

قال لي:

لو نطق الرصاص في بيت الرب الذي تحمله لقلت:

أنا خالدة الآن ... أنا ابدية.

بيدي مصيرك بيدي محياك ومثواك.

فصلي لي ... لعلني أخطئ هدفي وأمنحك فرصة أخرى.

ابتسمت ابتسامة شاحبة:

كان يسخر...

كأنه يؤدي مشهدا في مسرحية تراجيدية، يداه تسبق فمه، وملامحه تتفنن في الاستهزاء ولو استجوبت شاهدا، لقال لك إني لم أكن الا مسدية معروفا لمن قتلت.
تنفس فرانك ببطء، كأن كل كلمة منها تنزع من رئتيه جزءا من الهواء.
بل لقال لك:

ان عليك مقاضاة القتل على رغبته لا مقاضاتي.

ساد الصمت.

صمت طويل، ثقيل، مدان.

ثم قالت بصوت أخفت، منكسر هذه المرة:

أما الندم؟

أفتراني طلبت النجدة لو لم أكن أتألم؟

جاءني الندم صفعة ... حين أدركت أني لم أكن سوى خاضعة لرغبت غريمي.

حاولت أنقاذه ... أقسم أني حاولت.

رفعت كتفيها بلا مبالاة قاتلة:

لكن عقله أدرك الحقيقة قبلي.

فأبى أن يؤازر الجسد على المقاومة.

أسدل جفنيه ...

مبتسما ...

مستهزئا ...

وأخيرا شاكرا.

همست:

قتيلي كان ممتنا يا حضرة المحقق.

شعر فرانك بأن الأرض تميد تحته.

هذا الامتنان ...

يعرفه جيدا.

عرفه من عيون أغلقت على يديه.

أنهت نواه حديثها ببرود يشبه الحكم الأخير:
وها أنا الآن ممتنة للحكم الذي سيلحقني به.
ليست جريمة ...
إنها حلقة موت ملعونة، تتسع، وتلتهم ضحاياها بمحض أراذلتهم.
اقتربت بجسدها قليلا وصوتها صار أخفض، أخطر:
اكسرها الآن.
أدني بتهمة القتل مع سبق الاصرار والتخطيط ...
والا ستجلس هنا يوما ما، مع أخيريوي لك كيف قتلتني استجابة لرغبتني.
نهض فرانك ببطء.
كانت ركبتاه ثقيلتين، كأنهما تحملان أعمارا لا سنوات.
لم يكن في رأسه صدى حلم أو صورة مفزعة، بل فراغ خائق، فراغ رجل أستيظ قبل
سنتين ليجد أن التعب صار هويته الوحيدة.
مرر يده على وجهه، شعر بسخونة جلده وبثقل أنفاسه.
لم يعد يحزن لشيء محدد ...
كان حزينا من الحياة ذاتها، من تكرارها، من اصرارها الوقح على الاستمرار رغم أنه
استنفذ كل أسباب البقاء.
خرج من المكان دون أن يلتفت تاركا الأمور لميرفي لأنها.
الأروقة بدت أطول من المعتاد، الضوء الأبيض كان جارحا لعينييه، كأنه يفضح
هشاشته.
في رأسه، لم يكن هناك أفكار مرتبة، بل إحساس واحد متضخم:
سئمت !
سئم أن يكون محققا.
سئم أن يكون زوجا.
سئم أن يكون أنسانا يطالب دائما بأن يفهم، أن يبرر، أن يتحمل.
قاد سيارته ببطء.
لم يستمع للمذياع، لم ينظر للطريق.

كان يقود كمن يسير نحو نتيجة يعرفها جيدا، ولا يحاول تغييرها.
عندما وصل الى المنزل، كان كل شيء ساكنا.
سكون ثقيل، كأن البيت نفسه يسرق أنفاسه.
تشارليز كانت هناك.
لم تسأله أين كان، ولا لماذا تأخر.
نظرت اليه فقط ...
تلك النظرة التي تجمع بين الحب والإنهاك، بين الأمل الذي طال انتظاره والخوف من خيبته.
تبدو متعبا..
قالتها بهدوء.
أبتسم ابتسامة باهتة، لم تصل الى عينيه.
اقترب منها، وقف أمامها طويلا، يدرس ملامحها كما لو انه يراها للمرة الأخيرة قبل أن تغادره للأبد.
ولعلها كانت كذلك فعلا.
أنا متعب من كل شيء، يا تشارليز.
قالها بصدق جارج.
مدت يدها نحوه، محاولة أن تعيده، أن تشده الى ما تبقى من الحياة.
لكن فرانك الذي تعرفه لم يعد هناك.
كان قد غادر قبل أن تصل يدها إليه.
الحركة لم تكن عنيفة.
لم تكن هستيرية.
كانت هادئة، باردة، نهائية.
عينها أوسععتا، حاولت أن تقول شيئا لكن الصوت لم يخرج لأن رصاصة فرانك لا تخطئ ابدا.
وفي لحظة واحدة، سقط جسدها.
وسقط معه آخر شاهد على الرجل الذي كانه فرانك يوما ما.

وقف فوقها لا يرتجف، لا يبكي.
نظر الى يديه طويلا، ثم همس بصوت بالكاد يسمع:
هذه النهاية إذا...
جلس على الأرض، مسندا ظهره الى الجدار والفراغ يلتهمه ببطء وفي تلك اللحظة، شعر
بشيء غريب ...
ليس صوتا، ولا صورة، بل حضور.
كأن الهواء تغير.
كأن الغرفة لم تعد الغرفة نفسها.
صوت هادئ، عميق، جاء من حيث لا يرى:
كان لابد أن تصل الى هنا فرانك.
رفع رأسه ببطء.
لم يرى وجهها واضحا، بل ظل رجل يقف عند حافة الإدراك، ملامحه غير مكتملة، كأنه
فكرة أكثر منه جسدا.
من أنت؟
سأل فرانك بلا اهتمام حقيقي.
أجابه الظل:
شخص تأخر كثيرا ... وأسمه أرون.
لم ينتظردا.
اختفى الحضور كما ظهر، تاركا خلفه سؤالا أكبر من أي أجابه، وشعورا بأن ما حدث
لم يكن نهاية ... بل عبورا
وفي كون آخر.
بعيدا عن هذا الكون.
كان ذاك الطبيب النفسي يصحوا من نومه، غير مدرك أن اسمه قد كتب للتوفي
الصفحة التالية من هذه الحكاية



" الفصل الثاني "

(فصل الطبيب النفسي جون)

"بداية الأحلام"

أستيقظ جون وهو يلهث.

ليس لأن الحلم كان صاخبا، بل لأنه كان هادئا أكثر مما ينبغي.

في الحلم، كان واقفا في ممر ابيض لا نهاية له.

الجدران ناعمة، بلا زوايا، كأن المكان صمم ليمنع الارتطام... أو الهروب.

الأرضية لامعة، تعكس قدميه، لكنه كلما نظر للأسفل، لم يجد ظله.

الأبواب مصطفة على الجانبين، عددها لا يحصى، متطابقة، لكن كل باب يحمل اسمه.

جون.

الاسم محفور بعمق، كأنه نقش بأداة حادة، لا بحبر.

أقترب من أول باب.

تردد.

ثم فتحه.

وجد نفسه خلفه.

نسخة أخرى منه، تجلس على كرسي، رأسها منحني، يدها متشابكتان، وعيناه

مرفوعتان نحوه.

لم تقل النسخة شيئا.

لكن نظرتها كانت واضحة، نظرة رجل انتظر طويلا.

تأخرت.

أغلق الباب بسرعة.

تراجع خطوة.

فتح بابا آخر.

المشهد ذاته.

هو... مرة أخرى.

لكن هذه النسخة كانت تنزف من أنفها.

وفي الثالثة، كان يحمل بيده ملفا طبيا، أوراقه ملوثة بالدم.

وفي الرابعة... كانت النسخة تبتسم.
ابتسامة هادئة، غير منطقية، كابتسامة شخص ارتكب خطأ ثم اقتنع أنه كان حتمياً.
بدأ يركض بشكل هستيري.
لكن الممر لم يتغير.
الأبواب لا تنتهي.
واسمه يتكرر.
جون...
جون...
جون...
حتى بدأ الصوت.
ليس صوت خطوات.
ولا صوت تنفس.
بل صوت عقارب ساعة.
تيك...
تاك...
مع كل نبضة، كان يشعر بشيء ينسحب من صدره.
ليس الهواء...
بل الوقت.
توقف فجأة.
أمام باب مختلف.
هذا الباب لم يحمل اسمه.
بل كان فارغاً.
مد يده.
وحين لمسه، سمع صوت كاترينا.
_جون...؟
الصوت لم يأتي من خلف الباب، بل من داخله.

ارتجفت يده.
الصوت تكرر، أقرب، أضعف.
_جون... لا أعرف أي دواء....
وقبل أن يتمكن من الرد، سقط الصمت.
صمت كثيف.
كأنه مادة تغرق الرئتين.
اختفت الأبواب.
اختفى الممر.
اختفى كل شيء.
وبقي هو...
واقفا في فراغ أبيض، يحمل اسمه في رأسه ولا يجد صوته.
حينها فقط فتح عينيه فجأة.
السقف الرمادي لغرفته عاد الى مكانه، ضوء الفجريتسلل بخجل عبر الستائر
الثقيلة، وقلبه مازال ينبض كما لو أن شيئا يطارده من الداخل.
جون؟
صوتها.
كاترينا.
كان صوتها كخيوط دافئ يشده ببطء من حافة الهاوية.
التفت نحوها.
كانت مستيقظة، تراقبه بعينها الواسعتين، المرهقتين من ليلة بلا نوم.
جون كان في أواخر الثلاثينيات، وجهه حاد الملامح، أنف مستقيم، ذقن غير حليق
بالكامل كمن نسي نفسه عمدا.
عيناه عسلتان داكنتان، تحملان ذلك النوع من التعب الذي لا يشفى بالنوم بل
بالنسيان.
أما كاترينا.
فكانت النقيض الذي لا يفهم.

شعرها الأشقر الداكن منسدل بعشوائية على الوسادة، بشرتها شاحبة قليلا، لكن دفعها كان واضحا في كل حركة.

لم تكن جميلة بالصورة الكلاسيكية، بل جميلة بالطريقة التي تجعل الحزن يتردد قبل أن يلمسها.

حلمت مرة أخرى؟

سألته بهدوء.

لم يجب فوراً.

مد يده ولمس معصمها كأنه يتأكد أنها حقيقية.

لم يكن حلما عزيزتي...

قال أخيراً.

كان ... سؤالاً بلا أجابه !

اقتربت منه أكثر، وضعت جبهتها على صدره وهمست:

أنت لا تنام يا جون أنت فقط تغلق عينيك.

ابتسم ابتسامة صغيرة، مكسورة.

وكيف ينام من يقضي يومه يقنع الآخرين أن واقعهم حقيقي؟

نهض من السرير.

ارتدى قميصه ببطء، وكأنه يحمل جسده معه لا العكس.

في المرأة، نظر الى انعكاسه طويلاً.

لم ير طبيباً.

رأى رجلاً يحاول كل يوم ألا يصدق أفكاره الخاصة.

- ستتأخر؟

سألته كاترينا.

- كالعادة.

اقتربت منه، عدلت ياقة قميصه، قبلته قبلة قصيرة لكنها ممتلئة بشيء يشبه الوعد.

- عد لي...

حتى لو عدت تعباً.

هز رأسه وخرج.
لم ينتبه للطريق.
المدينة مرت من حوله كما تمر الذكريات غير المهمة، شوارع يعرف أسماءها، دون أن يتذكر كيف أحبها.
كانت العيادة تقع في مبنى قديم في الطابق الثاني، جدرانه رمادية كأنه شيدت لتحتفظ بالأسرار.
الممرات ضيقة.
الإضاءة بيضاء قاسية.
الهواء... دائما بارد.
السقف منخفض نسبيا، مرصع برسومات هادئة فقدت قدرتها على الطمأنينة منذ زمن.
باب اسود ذو خشبيات بارزة، وأقفال من طراز قديم تغلق أكثر مما تحيي.
في منتصف الغرفة، طاولة صغيرة عليها كأس ماء لم يمس، ومزهية بيضاء تشقها زخرفات حمراء وبنية كأنها شقوق جف منها الدم.
الكرسيان المتقابلان أزرقان، مبطنان جيدا، مريحان بما يكفي ليستسلم الجسد، وقاسيان بما يكفي ليبقى العقل متيقظا.
كرسي جون ثابت، أما كرسي المريض فغالبا ما يكون مقيدا بالأصفاد حين يأتي القادمون من خلف الأبواب الحديدية الأخرى.
رائحة العيادة خليط غريب:
مطهرات طبية.
ورق قديم.
ونفس بشري مثقل بالاعترافات.
رائحة لا تزول مهما فتحت النوافذ، لأنها لا تسكن الهواء، بل الذاكرة.
وفي زاوية الغرفة، يقف جهاز تسجيل صغير، نقطة حمراء تومض بهدوء، كعين لا تحكم ولا تتعاطف، بل تتذكر فقط.

كانت العيادة بكل ما فيها، لا تشبه مكانا للعلاج، بل غرفة اعتراف لا يغفر فيها شيء، ولا يدان.

مكانا يترك فيه العقل عاريا ويخرج منه الجسد وحده حاملا ما لم يستطع قوله.
وكان جون يعلم أن هذه العيادة لم تكن يوما مخصصة لمرضاه فقط، بل كانت مرآته الأكثر صدقا.

غرفة جون كانت مرتبة أكثر مما ينبغي.

كتب مصطفىة.

ملفات مصنفة بدقة.

كأن النظام محاولة يائسة للسيطرة على الفوضى الداخلية.

جلس خلف مكتبه، جهاز التسجيل أمامه، النقطة الحمراء تومض ببطء.... كعين لا ترمش.

ضغط زر التسجيل.

- جلسة جديدة.

الوقت: التاسعة صباحا.

تفضل أنا أسمعك.

جاء صوت المريض هادئا أكثر مما ينبغي.

- لا مثيل للأحلام يا دكتور.

هي المنفذ الوحيد الى عالم لا اجرؤ على دخوله وأنا مستيقظ.

ذكرياتي هشة، وماضي يبدو كقصبة أتقنت روايتها حتى صدقتها.

في أحلامي، أرى شخصا لا أعرفه.

تارة يبدو كملاك هبط من سماء مثقلة بالغيوم.

وتارة يبدو كشيطان خرج زاحفا من شق في الأرض.

لا أعرف إن كنت أراه... أم أكونه.

أعيش أحلاما غريبة، أليس كذلك؟

جون لم يجب فوراً.
الكلمات لامست شيئاً بعيداً في ذكرياته، ليست ذكرى شخصية، بل حكاية قديمة
سمعتها ذات مرة في مؤتمر أكاديمي.
حكاية تروى على الهامش.
عن محقق قيل إنه رأى ما لا ينبغي رؤيته.
وقيل إن أحلامه سبقت الجرائم.
وقيل "وهنا كانت الضحكات"
أنه لم يكن سوى إسقاط جماعي نسجه خيال مهني متعب.
لم يكن إسماً في ملف.
ولا حالة في سجل.
كان اسطورة صغيرة يتداولها الأطباء النفسيون حين يريدون السخرية من حدود
علمهم.
هز جون رأسه خفيفاً، كمن يطرد فكرة لا تستحق البقاء.
ثم قال:
سواء كنا مستعدين للموت أم لا، سنواجه مصيرنا يوماً ما.
هكذا تؤخذ الأمور.
سواء أكانت الأحلام نوافذ إلى عوالم أخرى أو مجرد خدع عصبية... فنحن الشخص
ذاته في الحلم والواقع.
لا شيء يتغير، إلا مقدار الألم الذي نسمح له بالظهور.
ضحكة خافتة صدرت من الشاب.
هذا ما يقوله العلم....
لكن ماذا لو كان العلم لا يرى إلا السطح؟
ماذا لو لم نكن ننقل بين حلم وواقع، بل بين نسخ مختلفة من الشخص ذاته؟
ماذا لو كان هناك شخص واحد فقط... يتوزع علينا جميعاً؟
ساد الصمت.

شعر جون بانقباض غير مبرر.
كأن السؤال لم يوجه إليه، بل إلى شيء يقف خلفه.
- أنت في العشرينيات من عمرك !
قال محاولاً استعادة الإيقاع.
الطريق أمامك طويل.
والوقت.... مازال في صفك.
- الوقت؟
رد الشاب بهدوء بارد.
الوقت لا يقف مع أحد يا دكتور.
هو فقط... يراقب.
ثم أضاف، بصوت أخفض:
- أحياناً أشعر أنني وصلت متأخراً...
إلى نفسي.
انتهت الجلسة.
أطفأ جون جهاز التسجيل.
بقي جالساً للحظة، ينظر إلى الضوء الأحمر وقد انطفأ.
كانت الكلمات مازالت تبحث عن مكان تستقر فيه.
نهض.
لكن الشعور...
لم ينهض معه.
في الممر، أنعكس وجهه على الزجاج، فرأى نفسه ... فقط نفسه.
ومع ذلك، عادت تلك الخرافة الأكاديمية تطرق رأسه بلا استئذان.
ليس كحقيقة، ولا كتحذير.
بل كسؤال لم يجب عنه أحد قط:
ماذا لو لم تكن خرافة؟
وماذا لو كان الخطأ الوحيد.

أنهم سألوا عنها متأخرين؟
أغلق جون باب العيادة خلفه بعد أن غادر المريض.
وشعر للمرة الأولى أن الكلمات لم تعالج ... بل حفرت.
عاد الى المنزل متأخرا.
المدينة في الليل
تشبه مريضا فاقد الوعي.
أضواء بلا معنى.
شوارع بلا ذاكرة.
عندما دخل كانت كاترينا جالسة على الأريكة، تحت بطانية خفيفة.
تقرأ.
رفعت رأسها فور رؤيته قائلة:
- أهلا بك.
جلس بقربها، سحبها الى صدره.
لم يقل شيئا.
وضعت رأسها على كتفه.
ويدها على قلبه.
- هل أنقذت أحدا اليوم؟
سأله بنبرة نصف مزحة.
- لا....
قال بهمس.
لكنني عدت.
ولم يكن يعلم أن بعض العودات....
هي الأخيرة.
ابتسمت، قبلته ببطء، قبلة طويلة.
تشبه اعتذارا متبادلا عن كل ما لا يقال.
رأسه كان يؤلمه.

لكن في تلك اللحظة، كان العالم أقل قسوة.

ليس لأنه أصبح أفضل... بل لأنهما كانا معا.

أغمض جون عينيه للمرة الأولى.

شيء يشبه السلام.

لكن في أعماقه، كان يعلم...

أن الأحلام لم تقل كلمتها الأخيرة بعد

(حلم داخل حلم)

في اليوم التالي استفاق جون كما لو أنه استفاق من الجحيم نفسه.

كان يشعر بحركة غريبة في جسده، كأنما كانت أطرافه قد تم سحبها الى مكان آخر أثناء غيابه.

كانت غرفته مظلمة، مظلمة بشكل غير طبيعي.

رغم أن الساعة كانت تشير الى صباح مشرق، إلا أن الغرفة كانت تغلي في ظلام دائم.

كان الهواء خانقا، ممزوجا برائحة العفن والرطوبة.

رأسه كان يؤلمه بشكل مرعب.

وكانت نبضاته كأنها تسحب ببطء الى الأعماق.

أستنشق الهواء بشدة، لكن بدا أن رئتيه لا تستجيبان له، كما لو أن شيئا غير مرئي يسد أنفاسه.

وفجأة شعر بشيء يمر بجانبه، شعور بلمسة باردة على رقبة خالية من الحياة.

قفز من سريره، وحين ألقت خلفه، لم يجد أحدا.

لكن قلبه كان ينبض بشكل غير طبيعي، كما لو أنه يدفع نحو حافة الجنون.

كان يرى أمامه صورا غير واضحة، لكنه شعر أن هناك شيئا ما كان يختبئ في الزوايا.

يراقب كل حركة يقوم بها.

وفي اللحظة التي أعتقد فيها أنه سيكون بخير، شعر بتلك اليد الباردة مرة أخرى،

ولكنها لم تكن تلمسه بل كانت تخترقه.

كان يهمس لنفسه بصوت ضعيف:

"هل أنا هنا؟ هل أنا في مكان آخر؟"

لكن الأجوبة كانت ترد عليه بأصداً غير طبيعية، كأن عقله يتشقق أكثر، وكأن الكلمات نفسها هي التي تفتح فجوة عميقة بينه وبين الواقع. "كاترينا" صاح فجأة، وهو يسحب نفسه من أعماق الأفكار المظلمة. "أين أنت؟"

لكن صوته كان يتلاشى في الفراغ، وكأن الكلمات تذوب بمجرد أن تنطقها شفتاه. أصبح يدور في المكان كما لو أنه محاصر داخل دائرة مغلقة، وكلما حاول الخروج منها كان يقع في فخ آخر. كل شيء كان يبدأ بالإختفاء.

الطاولة التي أمامه بدأت تتحول الى سائل أسود يغلي. الجدران تتحرك كما لو أنها تنبض بحياة خفية. كانت الأصوات تأتي من تحت الأرض، كما لو أن شيء ما كان يزحف نحو السطح. شيء لن يعود كما كان بعد أن يخرج.

وكان كل شيء بدأ ينهار حوله، ليس فقط المكان، بل كل شيء. كان يعتقد بأنه يسمع همسات تخبره أن "الموت هو الحل" لكن كانت الهمسات نفسها تأتي من داخل رأسه.

في تلك اللحظة أدرك جون أنه لم يكن يعيش في هذا المكان فقط... بل كان يعيش داخل أصداً أكوام متداخلة.

كان حبيسا في حلم مستمر. حلم يتلووه حلم، وعالمٌ يبلع عالماً آخر والأُن، كان عليه أن يختار بين البقاء في هذا العالم الممزق أو أن يتحرر. - جون أستيقظ أرجوك

صوت كاترينا وصل إليه كقطعة خشب على سطح ماء متلاطم. فتح عينيه فجأة، لا فجر، لا شعور بالسلام.

فقط صمت طويل تبعه صوت كاترينا قائلة بخوف لا يدرك:

- كنت تتقلب كثيراً وتلفظ بإسمي ... هل كان...؟

أجابها وهو يلتقط أنفاسه:

- كان حلم ... مجرد حلم.

جلس على السرير، عقله مشوش، عيناه متعبة، ولكن لم يلتفت إليها بالكامل.

كاترينا جلست بجانبه، محاولة لمس يده.

- هل أخذت دوائك المسكن، كان رأسك يؤلمك في الأمس؟

قالت بصوتها الحنون محاولة إزاحة التعب والخوف عنه.

لكنه لم يلتفت بل رد بتعجرف سقيم:

- نعم وتركته في الغرفة، لا تقلقي.

نهض أخيراً، أرتدى ملابسه بلا انتباه لما تقول، بلا ابتسامة، بلا تواصل.

كاترينا حاولت الإمساك به، حاولت التحدث عن حلمه، عن المخاطر، عن أي شيء

يربطه بالواقع، لكنه لم يستمع.

- سأذهب إلى العيادة.

قال أخيراً بصوت خافت، لكن كأنه يتحدث إلى نفسه أكثر من كونه يجيبها.

(الطريق الى العيادة)

كان ذهنه غارقا بأفكاره.

خطواته على الرصيف كانت ثقيلة، كأن كل حجر يضغط على قلبه.

أفكار مشوشة تتراقص في رأسه، أشباح في أحلامه المزعجة، مشاهد لم يعد يستطيع التمييز بينها وبين الحقيقة.

ثم كان صوت صمت كثيف يغرقه، كما لو أن الهواء نفسه أصبح مادة تثقل الرئتين، ويختنق من مجرد محاولة التنفس.

"هل أنا هذا الرجل" سأل نفسه.

"أم أنني مجرد ظل يطارد نفسه في عالم لا يعرف الرحمة؟"

تسارعت ذكرياته:

وجه كاترينا الشاحب، ضحكتها التي لم يسمعها هذا الصباح، الأحاسيس التي لم يعد يستطيع الاحتفاظ بها.

كل حلم، كل كابوس، أصبح شريطا يعيد نفسه بلا توقف، يذكره بالفشل، بالذنب، بالوقت الضائع مع كاترينا.

ومع كل خطوة كان يشعر بثقل الجسيمات الميتة في عظامه، وكأن الأحلام نفسها تراكمت عليه، لم تعد مجرد صور في الليل، بل أشياء ملموسة، تطارده في وضوح النهار. ظل يسير بلا وعي بالمدينة.

بلا وعي بالناس.

حتى تلاشت الاصوات.

وتلاشت السيارات.

وبقي هو فقط محاصرا بين الحلم والواقع.

ثم فجأة، وكأن الزمن انكسر، وجد نفسه جالسا على كرسيه داخل العيادة.

أمامه مريض آخر، مكبل بالأصفاد، مرسل من قسم الأمن الجنائي للجرائم غير المقصودة.

جون لم يلاحظه لحظة دخوله، لم يلاحظ متى انتهت خطواته على الرصيف البارد، وكيف أنتقل من افكاره الممزقة إلى صمت العيادة المضيئة بضوء قاسي.

صوت الساعة، تيك تاك، تيك تاك.
دقاتها كانت تتسلل الى الممرات الباردة، كأنها توقظ في كل شيء ذكريات ثقيلة.
الصوت الميكانيكي للنقطة الحمراء على جهاز التسجيل يومض ببطء...
وكأن كل شيء في العالم الآن يصرخ:
الوقت مستمر، لكنك لم تعد تملكه.

(الجلسة الأخيرة)

حاول جون طرد كل هذه الهواجس ونسيان كل شيء، كشخص يحاول نسيان شيء لا يتذكره أصلا.
العيادة كانت كما هي:
جدران رمادية، ضوء أبيض قاسي، الهواء بارد كالجدار نفسه.
جون جالس خلف مكتبه، جهاز التسجيل أمامه، النقطة الحمراء تومض كعادتها
كعين لا ترمش.
- جلسة جديدة.
الوقت: التاسعة صباحا.
تفضل أنا أسمعك.
المريض، مقيد بالأصفاد، جالس على الكرسي الأزرق أمامه، عيناه تبحثان عن شيء
يمكن أن يخرج من الظلال التي تحيط به.
- خذ نفسا عميقا يا بني... ثلاثة دقائق قبل أن نبدأ.
المريض أغمض عينيه للحظة، ثم بدأ بالكلام بصوت منخفض، متقطع:
- لا أستطيع... لا أستطيع التفرقة بين ما أفعله وما أراه في أحلامي... أحيانا أشعر أنني
أقتل الناس دون أن أعلم.
جون أستمع بصمت، لم يتدخل بالكلمات الدافئة، لم يحاول تهدئته.
كان قلبه مثقلا بأفكاره الخاصة، كل كلمة يخرج بها المريض تذكره بنسخ نفسه في
أماكن أخرى، بأفعال لم يقترفها بعد.
- تقتل... تقتل...

رد جون بهدوء، لا يرفع صوته، كمن يلاحظ التفاصيل الصغيرة أكثر من الانفعالات:

هل ترى نفسك؟ أم ترى شخصا آخر؟
- لا أعرف...

اهتزت كتفا المريض ، صوته ينهار:
أحيانا... أستيقظ وأنا أتذكر وجوههم... والدم... والصرخات....
هز جون رأسه ببطء، كأنه يقرأ أن الفوضى الداخلية ليست حكرا على أحد:
- لا أحد يستطيع أن يفرق دائما... بين الظل والواقع.
- هل هذا... طبيعي؟

رد جون:

- الطبيعي والجنون... مجرد مسافة ضبابية بين أفكارك والجدران التي تحيط بك.
صمت طويل.

كل طرف منهما غارق في دوامة داخلية.

- لماذا... لماذا أستيقظ وأجد نفسي هنا فقط؟
لأنك تبحث عن سبب...

رد جون، لكن كلماته لم تخرج كعلاج، بل كملاحظة باردة.
المريض أنفاسه ثقيلة، يلمس قبضتيه المربوطتين:

- أشعر أن كل شيء يلاحقني... أحلامي، أفكاري، حتى صمتك....
- كلنا مطاردون، بطريقة ما.

أجاب جون، عيناه ثابتتان على وجه المريض، لكنه بعيد بذهنه.
ضغط زر الإيقاف، النقطة الحمراء توقفت عن الوميض.

- انتهت الجلسة.

حاول المريض أن يتحدث، لكن جون أشار له بالهدوء:

- لقد أنتهى الوقت.

خذ نفسا.

وأعد لنفسك شيء من السيطرة.

بقي المريض ساكنا، يحدق في الأرض.

جلسة اليوم انتهت، لكن الصمت بقي، أثقل من أي كلمات قيلت

(كارثة العودة)

جلس جون يحدق في النقطة الحمراء المتوقفة، كأنها نافذة صغيرة على شيء لم ير بعد.

نهض ببطء، جمع أوراقه وكأنها تبقى متصلا بالواقع الذي لم يعد يهيمه كثيرا وأخذ نفسا عميقا.

في ذهنه تلاشت جدران العيادة الباردة، وتبددت الأصوات الصامتة، وتحولت الى ضوء خافت يشبه الصباح في شقته.

وصل الى المنزل، فتح الباب، وضع مفاتيحه على الطاولة، وخلع معطفه. كاترينا جالسة على الأريكة، تحت بطانية خفيفة، تقرأ كتابا كعادتها، وكأنها لم تنتظر شيئا، وكأن العالم حولها مازال مستقرا.

- أهلا بك، قالتها بهدوء، محاولة أن تبدو طبيعية.

ابتسم لها، ووضع يده على كتفها، كأن كل شيء عاد الى مكانه.

- جميلة كانت جلسة اليوم؟

سألت بصوت خافت...

- لا لكنني عدت كما تطلبين، همس، كأن الكلمات تكفي لطمأنتها.

كانت عيونه غائبة، قلبه مشغول بأفكار الجلسة، بأحلامه التي لم تنته بعد، بأشباحه التي لا تغادره.

حتى عندما أمسكت يده، وعادت لتضع رأسها على صدره، لم يشعر فعليا بوجودها إلا كشبح بعيد، كلمسة من واقع آخر.

- آسف، همس، لم أكن أصغي هذا الصباح...

لكن الحقيقة، أن عقله لم يكن هنا بعد.

كان غارقا في دوامة ما بعد الجلسة، بين أفكار المريض وأحلامه، وكأن الوعي الحقيقي اختفى مع انتهاء النقطة الحمراء على الجهاز.

خلف الستائر، على الطاولة، كان هناك زجاجة دواء، صغيرة وبسيطة، لم ينتبه لها حين رآها، لم يلاحظ أنها ليست ما اعتادوا عليه.

كاترينا لم تعرف.

أخذتها معتقدة أنها مسكن وجع الرأس، لكنها لم تكن كذلك.
في لحظة لم يشعر بها، غاب جون عن العالم، وانطفأت أعينه على وهم العودة، بينما
في الشقة، كان الوقت يمضي بسرعة أكبر، وكانت النتيجة مأساوية.

(رنين مظلم)

كان الصوت الأول الذي أيقظه هورنين الهاتف في جيبه، ليقطع وهم العودة الذي
علق فيه جون منذ دقائق.
فتح عينيه ببطء، مازال يشعر بالدوار، بعالمه الداخلي الممزق بين أحلامه والجلسة
التي انتهت للتو.
نظر الى شاشة الهاتف، أسم كاترينا يلمع باللون الأحمر.
- ما الأمر؟

همس، صوته مبحوح، عقله لا يزال غائبا.
كان المحقق روشيل على الخط، صوته هادئا لكن ثقیل:
- سيدي جون، أنا أسف جدا.
وردنا اتصال منذ قليل بموت زوجتك تعازينا الحارة أتمنى أن تأتي في أقرب وقت
ممکن.
تفاجأ جون، حاول أن يرفض الكلمات، أن يرفض الواقع، أن يمسك بشيء من الأمل
يثبت له أن ما يسمعه خاطئ، حلم كأخر أحلامه المزعجة.
- ماذا تقول؟

صرخ بصوت متقطع، يده ترتعش وهو يحاول تثبيت نفسه على الطاولة.
أخبره المحقق أن كاترينا تناولت دواء خاطئا، دواء كان يجب ألا يقترب منه جسدها،
وأن الحساسية التي لم تخطر بباله هي التي قتلتها.
- لا... لا يمكن... كان مجرد مسكن...

لم أفعل شيئا.

همس جون، ودموعه تتساقط بغزارة كشلال ماء لا ينضب.
أنهار جسده على الطاولة، كأن الأرض التهمت، كأن العيادة نفسها أصبحت قفصا لا
يتركه يتحرك.

الدوار والصدمة والخوف امتزجوا في شعور واحد لا يطاق.
لم تعد هناك كاترينا على الأريكة، لم يعد هناك دفء، لم يعد هناك أي وعد بالسلام أو الهدوء.

كانت غرفة منزله، التي توهم أنه عاد إليها، مجرد وهم كبير، فقد كان غائبا هناك في العيادة، في عالمه الذي أنهار بسبب غفوة.

- أنا ... أنا أسف ... أرجوك، لا ... لا يمكن ... لم أكن ... لم أكن هنا ... لم أكن أصغي ... لم أكن ...، تلعثم، صوته يختنق بالنحيب.

حتى حين وصل الى الشارع، سيارات الشرطة هناك قطعت عنه أي أمل بالحياة.
دخل الى المنزل، جلس فوق رأسها وبدء بالبكاء.

بكاء كان أشبه بذنب سيلاحقه الى مماته الذي يتمناه.
رفع قطعة القماش عن وجهها الجميل الذي حافظ على أنوثته رغم موتها.

قائلا بصوت تعب لا يخرج:

أرجوك أبقى، فلا أمان لي في رحيلك يا جميلتي.

لكن السيف قد سبق العزل.

كاترينا موجودة جثة لا روح فيها.

لم يعد هناك شيء يربط جون بالواقع سوى أشباحه التي تلاحقه منذ أحلامه الأولى،
وصوت محقق يقول:

تعازينا إليك.

خرج رجال الشرطة.

لم يبقى في المنزل سوى الصمت.

الصمت الذي لا يشبه النوم، ولا يشبه الحداد بل يشبه بيتا نزع منه المعنى وبقيت
الجدران.

جلس جون على أرض غرفة النوم.

لم يجرؤ على الاقتراب من السرير.

كاترينا كانت هناك....

لكنها لم تكن هناك.

الدواء مازال على الطاولة الجانبية.

علبة صغيرة، بلا صوت، بلا ذنب.

قرأ الاسم مرارا.

يعرفه.

يعرفه جيدا.

دواء لا يعطى لمن يعاني من تلك الحساسية.

دواء شرحه لها بنفسه...

ذات مساء، حين كان مشغولا بملف آخر، وحلم آخر، وحياة لم تكن تخصه.

ضحك ضحكة قصيرة، مبحوحة.

- طيب....

قالها وكأنها إهانة.

مد يده الى صدره.

القلب مازال ينبض.

وهذا ما كان يؤلمه أكثر.

نهض مترنحا.

اتجه الى المرأة.

لم يرجلا مكسورا.

رأى شخصا يعرفه...

لكنه لا يتذكر متى أصبح هو.

وفجأة، رأى انعكاسا آخر خلفه.

لم يكن ظله.

رجل يقف بهدوء، معطف داكن، وجه شاحب، عينا غائرتان تحملان تعباً لا يشبه

الحزن...

بل يشبه الذنب الطويل.

لم يلتفت جون.

كان يعرف أن الالتفات سيجعل الأمر حقيقيا.

- لا تبحث عن السبب في الدواء.
- قال الصوت خلفه بهدوء مقلق.
- ابحث عنه في اللحظة التي قررت فيها أن تؤجل الإصغاء.
- أغمض جون عينيه.
- من أنت...؟
- شخص حاول أن يصلح ما لا يصلح، وجعل الأمور ... أسوأ.
- فتح عينيه.
- لم يكن أحدا في الغرفة.
- لكن الهواء تغير.
- أصبح أثقل.
- كأن المكان تذكر فجأة أنه شهد شيئا لا يجب أن ينسى.
- على الطاولة، كان هناك ملف لم يكن موجودا من قبل.
- ملف بني قديم، مهترئ الحواف.
- فتح الصفحة الأولى.
- اسم المريض:
- ستيف.
- لا لقب.
- لا تاريخ واضح.
- فقط ملاحظة مكتوبة بخط غير مألوف:
- المريض لا يتذكر ما فعله...
- لكنه يتذكر الإحساس بعده.
- أغلق جون الملف ببطء.
- في كون آخر، وفي وقت لا يمكن تحديده بدقة.
- كان رجلا أعزب يستيقظ من نوم هادئ، وقلبه مثقل بشيء لا يعرف اسمه.
- وصوت في رأسه يهمس باسم لم يختره:
- "دوروك".



"الفصل الثالث"
(فصل ستيف)

"صحوة من دون أحلام"

استيقظ ستيف قبل أن يرن المنبه بدقائق.

لم يكن فزعاً، ولا حلماً واضحاً اقلق عقله وجعله يستيقظ، بل ذلك الإحساس الذي يسبق الوعي بلحظة، كأن العقل كان يعمل طول الليل ونسي أن يتوقف.

حدق في السقف طويلاً.

لم يعد، يعد الشقوق كما كان يفعل في صغره، لكنه مازال يشعر أن السقف يحدق فيه بالمقابل.

نهض ببطء.

كان ستيف رجل في منتصف الثلاثينيات، نحيل الجسد، كتفاه مائلتان قليلاً إلى الأمام كمن اعتاد الانحناء فوق الكتب أكثر من الوقوف بين الناس.

وجهه شاحب، ليس شحوب مرض بل شحوب شخص ينام قليلاً ويفكر كثيراً. عيناه داكنتان، ثابتتان أكثر مما ينبغي، وحين يحدق لا يبدو وكأنه يرى الأشياء... بل يحللها.

لم يكن قبيحاً، ولم يكن لافتاً.

كان من أولئك الذين تمر بهم عشرات المرات ولا تتذكر ملامحهم إلا إذا جلسوا أمامك طويلاً وتحديثوا.

ارتدى ملابسه بعناية آلية، قميص داكن، معطف ثقيل يناسب شتاء المدينة، وحقيبة قديمة محشوة بالكتب كأنها تحمل وزنه الحقيقي لا الورق فقط.

وقف أمام المرأة لحظة.

لم يسأل نفسه: كيف أبدو؟

بل: هل سأستطيع اليوم أن أبدوا طبيعياً؟

(طريق إلى المدرسة الجديدة)

في الطريق إلى المدرسة الجديدة، كانت المدينة تستيقظ ببطء، شوارع رطبة، أصوات محركات مكتومة، وبشريسيرون كأنهم يؤدون دورا ملحوظا. ستيف كان يتحدث بصوت خافت، ليس لأنه مجنون، بل لأن الأفكار حين تترك صامتة تعلوا أكثر مما يجب.

- اليوم الأول ...

دائما يبالغون بأهميته، كأن البداية تغير شيئا.

توقف عند إشارة المرور، راقب الناس يعبرون.

- نفس الوجوه، نفس الخطوات، نفس العجلة للوصول الى أماكن لا أحد يحبها حقا.

ابتسم ابتسامة جانبية، سرعان ما اختفت.

- الغريب... أنهم يسمون هذا حياة.

تحركت الإشارة.

تابع طريقه.

(رنين الهاتف)

رن هاتفه.

توقف فجأة.

الاسم على الشاشة جعله يتنفس بعمق قبل أن يجيب.

- ماغي؟

جاء صوتها دافئا، دافئا وكأنه يزيح برد الصباح المزعج.

- أردت فقط أن أتمنى لك التوفيق في يومك الأول.

ساد صمت قصير.

ستيف لم يكن بارعا في الردود السريعة، دائما يفكر أكثر مما يتكلم، وأحيانا... لا يتكلم

أبدا.

- شكرا.

قالها أخيرا بنبرة هادئة.

- هل أنت متوتر؟

سألته.

نظر الى الطريق أمامه.

- لا...

فقط أفكر.

- أنت تفكر دائما يا ستيف.

لم يجب.

لم يكن يعرف كيف يشرح لها أن التفكير ليس عادة لديه، بل حالة لا تنطفئ.

- اتصل بي لاحقا، قالت قبل أن تغلق الخط.

أريد أن أعرف كيف ساريومك.

- حسنا.

أغلق الهاتف.

وبقي ينظر الى شاشته المظلمة لحظة أطول مما يجب.

وصل الى المدرسة.

كانت المدرسة تقف في طرف الحي كجسد قديم أعيد طلاؤه لإخفاء تشققاته.

مبنى واسع، واجهته رمادية تميل الى الاصفرار، كأنها لم تحسم يوما إن كانت تنتمي للضوء أو للظل.

نوافذ طويلة، عالية، مصطفة بانتظام مقلق، تشبه أعينا مفتوحة أكثر مما ينبغي، تراقب الداخلين ولا تعدهم بشيء.

عند المدخل، باب ثقيل يئن عند فتحه، لا لأنه متهالك، بل كأنه يحتج على كل صباح جديد.

الممرات طويلة، ضيقة نسبيا، صوت الخطوات فيها يتردد أكثر من اللازم، يذكرك بأنك لست وحدك حتى حين لا ترى أحدا.

الجدران مطلية بألوان هادئة:

أزرق باهت، وأخضر خجول، اختيرت بعناية لتوحي بالراحة، لكنها على نحو غريب كانت تشبه غرف الانتظار في المستشفيات، حيث يطلب منك أن تكون هادئا لا أن تكون مرتاحا.

الإنارة بيضاء باردة، تجعل الوجوه شاحبة أكثر مما هي عليه، وتفضح التعب تحت العيون، ولا ترحم أحد.

الصفوف متشابهة حد الملل:

مقاعد بنية مصفوفة بدقة، طاوولات تحمل خدوشا قديمة حاولت الأجيال السابقة أن تترك بها أثر ثم فشلت.

السبورة سوداء، عليها بقايا طباشير لم تمسح جيدا، كأن الدروس السابقة لم تغادر المكان تماما، بل بقيت معلقة في الهواء تنتظر من يوقفها.

الهواء نفسه كان يحمل رائحة أوراق قديمة، طباشير، وصبر مستهلك.

مدرسة لا تشبه السجون، ولا تشبه البيوت، بل مكانا وسيطا... يعدك لشيء لا تعرف إن كنت تريده.

وبين كل ذلك، كان الصمت هو الشيء الوحيد الذي بدا حقيقيا.

(صف ستيف)

دخل ستيف الصف وكأن المكان كان ينتظره.

أغلق ستيف الباب خلفه، فانقطع صوت الممر دفعة واحدة، وبقي الصمت...

ذلك الصمت الدقيق الذي لا يشبه الهدوء بل يشبه الترقب.

كان صفه ليس كمثيلاته من الصفوف.

صف مستطيل، واسع بما يكفي ليشعرك بالفراغ، وضيق بما يكفي ليمنعك من الهرب.

المقاعد مصطفة في صفوف مستقيمة، انضباطها مبالغ فيه، كأن أحدا خاف من الفوضى فقتلها قبل أن تولد.

جلس الطلاب في أماكنهم، وجوه شابة، ملامح لم تتشكل بعد، لكن أعينهم كانت يقظة أكثر من اللازم.

يراقبون، ينتظرون، ولا يعرفون ماذا ينتظرون بالضبط.

لاحظ ستيف أن الصف لا يصدر صوتا.

لا همسات، لا احتكاك كراس، حتى أنفاسهم بدت محسوبة.

هذا أعجبه... وأقلقه في الوقت ذاته.

السبورة أمامه كانت سوداء، نظيفة أكثر مما ينبغي، فراغها مزعج، يشبه عقلا لم يدنس بعد ولا يعرف ماذا يفعل بنفسه.

الطباشير موضوعة بعناية، ثلاث قطع، متساوية الطول تقريبا. لاحظ ذلك فورا.

لم يكن يريد أن يلاحظ، لكن عقله لا يعرف كيف يتجاهل. النافذة على يساره تدخل ضوء رماديا، ليس كافيا لينير، ولا ضعيفا لهمل. ضوء يراقب، ولا يتدخل.

وقف خلف المكتب.

وضع حقيبته ببطء.

توقف لحظة.

أدرك فجأة أن الصف ليس مجرد غرفة. إنه نظام.

وكل نظام.... إما أن يدار، أو ينهار. ابتلع ريقه.

نظر إلى الوجوه أمامه.

لم يفكر في كونه معلما.

فكر في كونه عقلا أعطي فرصة نادرة ليرك أثره داخل عقول أخرى.

وهنا لأول مرة منذ الصباح شعر بشيء من الرضا.

ليس لأن المكان آمن، بل لأنه قابل للسيطرة.

وقف ستيف أمام الصف ولم يبدأ بالكلام فورا.

ترك الصمت يتمدد، ثانيتين... ثلاث...

حتى بدأ بعض الطلاب يتمللملون، لا لأنهم ضجروا، بل لأن الصمت صار عبئا.

عندها فقط، تقدم خطوة واحدة.

- صباح الخير.

قالها بهدوء غير متوقع، لا يعامل ودا، ولا قسوة.

صوت محايد... كأنه لا يريد أن يفهم خطأ.

لم يكتب أسمه مباشرة.
نظر الى الوجوه أولا، واحدا واحدا، نظرة قصيرة، دقيقة، كما لو كان يحفظهم دون أن يطلب الإذن.
قبل أن أعرفكم بنفسي، أريد أن أوضح شيئا.
توقف.
لم يكن توقفا دراميا، بل توقف شخص يختار كلماته بدقة، من يعرف أن الكلمة قد تفسد كل شيء.
- أنا لا أوّمن بالتعليم الذي يعتمد على التلقين.
ولا أوّمن بالشرح البطيء من أجل من لا يريد أن يفهم.
وأوّمن... أن الذكاء ليس موهبة.
إنه عبء.
تحرك قلم أحد الطلاب.
صوت خافت.
ابتسامة غير مكتملة على وجه آخر.
لاحظهم جميعا.
التفت نحو السبورة.
كتب أسمه بخط مستقيم:
ستيف.
ثم أضاف تحتها:
الكيمياء.
- الكيمياء، قال وهو لا يزال يواجه السبورة.
ليست علم المواد.
أنها علم دراسة التحول.
استدار إليهم.
- كل شيء يتحول.
المادة، الفكرة، والأنسان.

رفع قطعة الطباشير قليلا.

- الفرق الوحيد....

أن بعض التحولات يمكن إيقافها، وبعضها... حين يبدأ، لا يعود الى ما كان عليه أبدا.

ترك الطباشير على المكتب، وكأنها فقدت قيمتها.

- لن أطلب منكم أن تحبو هذا الدرس.

ولا أن تحترموني.

كل ما أطلبه... أن تكونوا صادقين مع عقولكم.

خفض صوته قليلا.

- ومن لا يريد ذلك، سيشعر بالملل.

والملل.... أسوأ من الفشل.

ساد الصمت من جديد.

لكن هذه المرة لم يكن صمت ترقب... بل صمت انتباه.

أبتسم ستيف ابتسامة صغيرة، سريعة، اختفت قبل أن تفهم.

- الآن، نستطيع أن نبدأ.

قالها ستيف بصوت منخفض، ليس موجهًا الى الطلاب، بل لنفسه.

استدار نحو السبورة، أمسك الطباشير بين أصابعه كما يمسك المرء أداة حادة يجيد

استخدامها أكثر مما ينبغي.

كتب كلمة واحدة فقط:

الذرة

ثم توقف.

صمت الصف لم يكن طبيعيا.

لم يكن صمت احترام، بل صمت انتظار... كأن الجميع يشعر أن شيئا ما سيقال ولا

يمكن التراجع عنه بعدها.

- قبل أن نبدأ بها

قال بدون أن يلتفت، أريد أن أكون واضحا.

ما سأشرحه لكم اليوم لن يفيدكم في الامتحان.

ولن يجعلكم أذكي بالمعنى الذي تحبه المدارس.
لكن إن أنصتتم جيدا... قد يجعلكم أقل طمأنينة.
ألتفت إليهم أخيرا.
كان ينظر إليهم لا كطلاب، بل كعقول خام، لم تكسر بعد.
- الذرة !
كما تدرس لكم، هي أصغر جزء في المادة ويحمل صفاته.
شيء مستقر، واضح، قابل للفهم.
ابتسم ابتسامة خفيفة، لم تصل الى عينيه.
- هذه كذبة مريحة.
قال بداخله.
تحرك في الصف ببطء، خطواته محسوبة، صوته ثابت.
- الذرة ليست وحدة.
هي ساحة صراع.
نواة محبوسة في مركزها، وإلكترونات لا تتوقف عن الهرب لكنها لا تنجح أبدا.
توقف فجأة.
هل تعرفون ما الأكثر إثارة للاهتمام؟
أن كل هذا النظام قائم على شيء لا نراه.
قوى.
احتمالات.
فراغ.
رفع الطباشير مرة أخرى، كتب:
إذا تغير الاحتمال... تغير كل شيء.
في الصف الخلفي، تحرك أحد الطلاب في مقعده.
ستيف لاحظته فورا.
- لا تقلق، قال بهدوء.
لن أطلب منكم أن تفهموا هذا الآن.

الفهم...

يأتي متأخرا دائما.

عاد الى طاولته.

جلس للمرة الأولى.

- ما يهمني، أن تعرفوا أن الاستقرار وهم.

وأن ما يبدو لكم متماسكا قد يكون على وشك الانهيار بسبب تغير صغير لا ينتبه اليه أحد.

ساد صمت جديد.

لكن هذه المرة كان أثقل.

رن هاتفه.

صوت حاد، غريب، كأنه لا ينتهي الى المكان.

تجمد ستيف لثانية.

نظر الى الشاشة.

ماغي تتصل.

لم يجب فورا.

نظر الى الطلاب، ثم الى الهاتف، ثم الى السبورة.

- استراحة قصيرة، قال أخيرا.

ابقوا في أماكنكم.

خرج الى الممر.

أغلق الباب خلفه.

- مرحبا؟

قال بصوت أقل صلابة.

جاء صوتها، دافئا... دافئا أكثر مما يحتمل.

فقط أردت أن أعرف إن كنت قد تناولت فطورك.

أبتلع ريقه، لا لم أتناوله بعد ولكني سأتناوله بعد الحصة.

- حسنا يا حبة البن خاصتي أنا بانتظارك بعد أن تنتهي من مربي.

بالتأكيد ... لكني مشغول الآن.

صمت قصير.

- ستيف، قالت بهدوء، هل أنت بخير؟

نظر الى الجدار أمامه.

شق رفيع يمتد من السقف الى الأرض.

شق صغير... لكن واضح.

- نعم... قال بسرعة.

كل شيء تحت السيطرة.

ضحكة خفيفة منها.

- دائما ما تقول ذلك.

أنهى المكالمة دون أن يضيف شيئا.

عاد للصيف.

جلس.

لكن الكلمات لم تعد تخرج بنفس الترتيب.

الأفكار بدأت تتراكم، تتداخل، كما لو أن شيئا ما بدأ يتحرك خارج معادلته المعتادة.

نظر الى الطلاب.

وفجأة، لم ير طلابا.

رأى نسخا محتملة.

حيوات لم تبدأ بعد.

أخطاء مستقبلية.

شد الطباشير بقوة حتى أنكسر بين أصابعه.

في تلك اللحظة، ولأول مرة منذ زمن طويل... شعرتيف أن ذكائه لم يعد أداة.

بل بابا انفتح أكثر مما ينبغي

(الانتهاء والعودة)

انتهت الحصة.

لم يلاحظ ستيف خروج الطلاب.

لم يسمع صرير الكراسي، ولا الضجيج المتكسر في الممر.

كان واقفاً أمام السبورة، ينظر إلى الكلمة الأخيرة التي كتبها بيده:

الذرة

لم تعد تعني المادة.

لم تعد تعريفاً علمياً.

كانت نقطة البداية.

أصغر وحدة... تخفي في داخلها انفجاراً.

أغلق دفتره ببطء، كأن الصوت قد يوقظه من فكرة لا يريد فقدانها.

غادر الصف أخيراً.

الممر بدا أطول مما كان عليه صباحاً.

الجدران الزرقاء، التي قد قيل يوماً أنها تبعث على الطمأنينة، بدت له الآن باردة،

محايدة، كأن اللون نفسه تخلص عن مهمته.

مر بجانب لوحات الإعلانات.

وجوه معلمين سابقين.

ابتسامات جامدة.

نهايات واضحة.

- جميعكم توقفتُم، قال في داخله.

أنا لم أفعل.

رن هاتفه.

ماغى

أجاب هذه المرة دون تردد.

- أين أنت؟

سألته.

- انتهيت للتو.

قال.

هل ما زلت تريد رؤيتي؟

- بالتأكيد، كنت بانتظارك

أجابت.

- لكن هل قلت إنك انتهيت للتو؟

عزيزي انها الثالثة وأنت تنتهي في الواحدة!

وقف متعجبا وكأنه تلقى صفة

- حقا انها الثالثة!!؟

سأل باستغراب وكأنه فقد الإحساس في الوقت

- نعم ما بك؟

- هل أنت على ما يرام؟

سألت خائفة.

-نعم عزيزتي أنا بخير يبدو انني لم أنتبه للتوقيت ليس إلا.

أجاب وكأنه يحاول تقبل ما حدث.

- حسنا

أجابت.

تعال.

أغلق الهاتف.

خرج من المدرسة.

السماء رمادية، منخفضة، كأنها تضغط على رأسه ببطء محسوب.

في الطريق الى منزلها، لم يكن يفكر.

كان يحلل.

الناس حوله بدوا كمعادلات بسيطة، سلوكيات يمكن توقعها، نتائج لا تحتاج الى

خيال.

- الوضوح مشكلة

تمتم.

لأن الحقيقة أعمق من أن تقال مباشرة.

وصل الى المبنى.

صعد الدرج بخطوات هادئة.

طرق الباب.

فتحته ماغي فوراً، كأنها كانت تقف خلفه منذ دقائق.

ابتسمت.

تلك الابتسامة التي لا تجيد تفسيرها لكنها تجيد تهدئته.

"كانت ماغي تملك وجهها أنثويا جداً ناعم الملمس مع معالم دافئة، عيونها خضراء دافئة مليئة بالود والعاطفة، شعرها أشقر اللون طويل يصل إلى منتصف ظهرها مفرد دائماً، ما يعكس حالة من التراخي العاطفي، متوسطة الطول، رشيقة للغاية، قوامها منحوت بشكل مثالي، ترتدي عادة ملابس انثوية ناعمة، مفضلة الألوان الهادئة التي تعكس طبيعتها"

- تأخرت

قالت.

- أردت أن أصل دون أفكار إضافية

أجاب.

ضحكت.

سحبته الى الداخل.

جلسا معاً.

الضوء خافت، الموسيقى منخفضة، والوقت.... كأنه توقف احتراماً لهما.

تحدثا عن يومه الأول.

عن الصف.

عن الطلاب.

عن الأشياء الصغيرة التي لا تهتم أحداً لكنها تصنع الشعور بالانتماء.

قالت له إنها فخورة به.

قال لها إن صوتها يهدئ ضجيج رأسه.
تبادلا كلمات حب صادقة, غير متكلفة, كأنهما يؤجلان شيء مجهولا باتفاق صامت.
في وقت متأخر, نهض ستيف.
- يجب أن أعود
قال.
- أبق
قالت بهدوء يسكن الراحة في القلب.
تردد لحظة.
ثم ابتسم.
- الليلة لا
قال.
لكنني هنا... أكثر مما تظنين.
قبل جبينها.
وخرج.

(العودة والحلم الأول)

عاد الى منزله.
الهدوء استقبله كفراغ مألوف.
خلع معطفه.
ألقي الحقيبة جانبا.
استلقى على السرير دون أن يغير ملابسه, أغمض عينيه على أمل النوم لحظات قليلة.
لم يكن يعلم أن عقله سيأخذه الى عالم لم يسبق له أن رآه.
شيء غريب بدأ ينمو في الظلام خلف جفونه, ثم توسع حتى غمره كله:
حلم أول, قاسي, غريب, كأن عقله نفسه أراد أن يختبره على الفور.

وجد نفسه واقفا في منتصف غرفة لا يعرف لها مخرجا.
الجدران البيضاء تتلون تدريجيا بخطوط حمراء داكنة، كأنها نبضات قلبه المتسارعة تتحول الى لون.
أصوات مكتومة، همسات بعيدة لا يفهمها، تملأ المكان، لكنها ليست حقيقية، فهي تنبع من داخله.
أشياء تتحرك على أطراف رؤيته.
ظلال تتشكل في زوايا الغرفة، وجوه غير واضحة، تقفز وتختفي قبل أن يركز عليه.
شعر بشيء يراقبه، شيئا يعرفه، لكنه لا يستطيع تذكره.
ثم رأى نفسه يجلس على كرسي.
ولكن ليس كرسي عاديا.
الكرسي كان مصنوعا من أسلاك حادة، ويمتد من الأرض حتى السقف، كأنه فخ معد له.
كلما حاول النهوض، تكسرت الأرضية تحت قدميه، وتختفي أصابعه بين الخطوط السوداء.
صوت خافت، يشبه صدى صوته هو نفسه، قال:
- هل تعلم من أنت؟
لم يستطع الإجابة.
كل تفكيره تجمد، وكل مشاعره أطلقت نحو الرعب.
ثم انفتحت الأبواب المحيطة به.
أبواب عديدة، وكل باب كان يحمل وجه ماغي، ولكن كل وجه مبتسم بطريقة مشوهة، مخيفة، كما لو أنه يحذر من نفسه.
وكلما اقترب من أحدها، اختفى، وتحرك آخر في مكانه.
ارتجف ستيف، وحاول الصراخ، لكن صوته لم يخرج.
كان الحلم لا يترك له مخرجا، ولا يسمع صرخاته إلا نفسه.
ثم استيقظ فجأة، يلهث، قلبه يضرب بسرعة تفوق الخيال.

العالم الواقعي عاد من حوله، غرفته مظلمة وهادئة، الضوء الخافت من المصابيح الصغيرة ينعكس على الحائط.

لكن أثر الحلم بقي محفورا في عقله، مثل ندبة سوداء لا تزول.

(صدمة الحلم)

بعد استيقاظه من الحلم، جلس ستيف على حافة السرير، كأنه يحاول أن يجمع أجزاء عقله المبعثرة.

وجهه حاد الملامح، عيناه الداكنتان تحملان ثقل ما رآه للتو، وهدير أفكاره يعكس التوتر الذي يعانيه كل يوم.

شعره غير مرتب، كأنه لم يكتبرث لنفسه منذ أيام، بينما ذقنه الخفيف النمو يوحى باللامبالاة المتعمدة.

كانت يديه ترتجفان قليلا وهو يضع قدميه على الأرض الباردة. شعور بالفراغ يلتهمه من الداخل، وكأن الحلم لم يترك له فرصة للراحة أو للسلام النفسي.

نظراته تتجه نحو النافذة، حيث ضوء الفجر يتسلل بخجل. لكنه لم ير الجمال المعتاد في الضوء، بل خطوطا صارخة من الواقع المخيف الذي يلاحقه.

- ليس وقتا للراحة، همس لنفسه.

أخرج هاتفه من الطاولة الجانبية، ووجد مكالمة فائتة من ماغي. التردد بدا واضحا في قلبه، لكنه ضغط على زر الاتصال.

- ستيف...

صوتها جاء لطيفا، لكنه يحمل القلق.

- نعم أنا هنا...

لم يبتسم، لم يقل شيئا عن حلمه، لم يكتبرث لقلقها.

كانت كل أفكاره مشغولة بما رآه، بما شعر به، وما سيواجه خلال اليوم.

- هل ستأتي اليوم؟

سألته بصوت خافت.

- سأكون هناك، قال ببرود، وكأنه يبتعد عن كل شيء سوى أفكاره الداخلية.
ارتدى معطفه، جمع حقيبته، وتوجه نحو الباب، بينما قلبه لا يزال ينبض بسرعة
الحلم الذي ترك أثره على كل جسد وعقل.
خارج المنزل، كان الطريق الى منزل ماغي مظلمًا وضبابيًا.
ضوء المصابيح الخافتة يعكس أطوال ظلاله على الأرصفة المبتلة، والأصوات البعيدة
للمدينة تتخلل أفكاره المبعثرة.
مع كل خطوة، تتجدد صور الحلم أمام عينيه.
كل زاوية، كل ظل، كل وجه يشبه ماغي بطريقة ما، لكنه مقلوب، مشوه، يترقب
حركته.
- كل شيء مجرد احتمال، تتمم ستيف لنفسه، الجنون يربت على كتفه، يهمس بأن
الأفكار ليست بريئة أبدا...
وفي لحظة، وجد نفسه أمام منزل ماغي، قلبه لا يزال مشدودا بين الواقع والظل الذي
تركه الحلم.

(دفع المنزل)

دخل ستيف منزل ماغي، وكان الدفع يختلف تماما عن البرودة التي حملها الطريق.
الجدران كانت مزينة بصورة بسيطة، وأثاث المنزل خفيف ومريح، لكن كل شيء بدا له
اليوم كخلفية لمشهد داخلي معقد لا يفهمه سوى هو.
جلست ماغي على الأريكة، شعرها الأشقر ينسدل بطريقة طبيعية على كتفها،
وابتسامتها تكاد تضيء الغرفة، لكنها لم تكن قادرة على اختراق الحاجز الذي بناه
ستيف حول عقله.
- مرحبا، قالت بصوت دافئ.
- مرحبا، رد ستيف، بصوت بارد قليلا، لكنه مشحون بالانتباه الداخلي.
جلسا معا، لكنها لاحظت صمتا غريبا عليه.
حاولت أن تشغله بالكلام عن يومها، عن طعامها الصحي الخفيف، عن التفاصيل
الصغيرة، لكنه لم يلتفت إلا بكلمة أو اثنتين.
- ستيف، هل أنت متعب؟

سألته بحذر.

- أفكر، همس، ليس هناك وقت لأشياء صغيرة الآن.
- مرت الساعات، وتبادلا كلمات الحب، بعض الهمسات، بعض النظرات، لكنها لم تصل الى قلبه بالكامل.
- كان ذهنه مشغولا بما رآه في الحلم، بما يحلله، بما يحاول فهمه قبل أن يغرق فيه.
- سأذهب الآن، قال أخيرا، وهو يقف.
- أليس الوقت مبكرا جدا؟
- لا، حان الوقت، أضاف ببرود، وكأنه يودع فكرة أكثر من شخص.
- خرج من منزلها، والهدوء الذي أعقب مغادرته لم يملأ أي فراغ داخلي، بل زاد من شعوره بالغيرة والانعزال.

(عودة وتصدع وحلم جديد)

- عاد الى منزله، وضع جسده على السرير، لكن النوم لم يأت بسهولة.
- ذهنه كان ممتلئا بالصور والأصوات والأفكار التي تلاحقه منذ الصباح.
- أغمض عينيه، وفجأة بدأ يتسلل إليه حلم جديد، أكثر حدة وأكثر قتامة، كما لو أن عقله لم يتحمل الواقع فابتكره بنفسه.
- في الحلم، كانت الممرات تتفرع بلا نهاية، كل زاوية تحمل احتمالات لا تعد، وكل احتمال يظهر وجهها مختلفا له:
- ضاحك، صارم، مغمض العينين، مستهزئ.
- أصوات مكتومة تتردد بين الجدران، أحيانا كلمات لا معنى لها، وأحيانا أسماء، وهمسات، ونبرة تهديد.
- فتحت عينيه فجأة، والعرق يغطي جبينه، قلبه يخرج من صدره وكأن شيئا ما يطارده.
- ليس الآن... همس لنفسه، وهو يجلس على حافة السرير يحاول استعادة هدوءه.
- وقف أرتدى ملابسه، وسحب معطفه بإهمال، وخرج من المنزل، وكأنه يحاول الهرب من الرعب الموجود بداخل تلك الجدران الباردة.
- خطواته ثقيلة على الرصيف الرطب.
- الشارع يبدو غريبا اليوم، كما لو أن المدينة كلها جزء من حلم قاتم.

أصوات السيارات تتصادم، صدى الخطوات، ضحكات بعيدة، لكنه لم يسمع شيئاً حقاً.

كل ما يراه هو نسخ من نفسه تتفرع في كل اتجاه، تحاول الوصول الى الحقيقة، تحاول فهم ما هو غير قابل للفهم.

- لماذا كل شيء بهذه البساطة أمام الآخرين؟ تتم بصوت منخفض.

- لماذا لا يرون التعقيد الذي يحيط بنا؟

اقترب من المدرسة، وبدأ يرى المبنى الضخم بزوايته الزرقاء والبيضاء كما لو أنه كائن حي، يتنفس، يراقب كل من يقترب منه.

كل نافذة، كل باب، كل درج... كان يمثل احتمالات لا حصر لها.

- حتى هنا... حتى داخل الصف، كل شيء سيكون مختلفاً، قال وهو يدخل البوابة.

الطريق لم يكن مجرد مساراً، كان مساحة للتفكير، لحساب كل حدث، كل تفاعل محتمل، كل خطأ قد يؤدي الى الانهيار.

كان يعلم أن أي حركة خاطئة ستزيد ثقل الجنون الذي يترص به منذ بدايات النهار. اقترب من صفه، وفتح الباب.

الهواء داخل الفصل ثقيل، رائحة الطباشير والمقاعد القديمة، لكن ستيف لم يلتفت لأي شيء من ذلك.

جلس خلف مكتبه، وأخرج دفتره، لكنه لم يكتب شيئاً.

كانت عيناه تتحرك عبر الغرفة، تراقب، تحلل، تتفحص كل زاوية، كل ضوء، كل صمت.

- هذا ما أحاجه... همس.

التفكير، الاحتمالات، المعادلات التي لا تنتهي.

وفي هذه اللحظة رن هاتفه.

ماغى.

ابتلع الصوت جزءاً من عقله، جزءاً من جنونه، لكنه أجاب.

- نعم؟

- ستيف... ما بالك بحق السماء، لماذا تبتعد عني هكذا؟ قالت بنبرة قلقة ترتجف.

- أفكر، أجب ببساطة.
- التفكير لا يعني الابتعاد.
- احتفظ بصوته هادئا، لكنه كان يراقب كل شيء من حوله، يزن كل احتمال، كل رد فعل، كما لو أن العالم كله أصبح مجرد متغيرات يجب حلها.
- مربى اليوم، أنا بحاجة إليك.
- قالت بحزن.
- حسنا، عندما أنتهي.
- أغلق الهاتف.
- دخل ستيف الصف، لكن لم يكن مجرد مكان للدرس اليوم.
- كان غرفة مغلقة، مليئة بالاحتمالات، حيث كل مقعد يمثل نسخة محتملة من المستقبل، وكل طالب يحمل بداخله سيناريو مختلفا يمكن أن ينقلب الى فوضى.
- جلس الطلاب بترتيب شبه مثالي، صامتون، لكن أعينهم كانت تتحرك، تبحث عن إشارات، عن أي تلميح من المعلم الذي بدا غريبا، مشدودا، كمن يراقب الكون كله بعين واحدة.
- صباح الخير، قال ستيف بصوت منخفض، لكنه يحمل ثقلا لم يعتده أحد.
- سنكمل اليوم بمقدمة الذرة، قال، لكنه لم يقصد الذرات.
- كان يقصد الانقسامات، الاحتمالات، التشظي الداخلي الذي يشعر به عقله.
- بدأ الشرح، لكنه لم يكن يشرح للطلاب فقط، بل لنفسه أيضا، لكل نسخة من ستيف التي تتوزع في ذهنه.
- كل شيء من حولنا، كل شيء داخلكم، هو نسخة من الاحتمال، تتمم لنفسه.
- الطلاب يكتبون، يحاولون فهم الدرس، لكن ستيف لم يعد ينظر إليهم بعين المعلم.
- كان ينظر الى نفسه، الى خريطة الاحتمالات التي تنتشر داخله.
- أعزائي أنا متعب اليوم لذلك لن نتكلم أكثر لكنكم مطالبون بحلقة بحث كاملة عن الذرة وأقسامها مفهوم.
- حسنا يا أستاذ.
- خلى الصف من الضوضاء، خرج الطلاب، لكنه لم يلاحظهم يغادرون.

جلس وحده، أمام السبورة التي كانت تومض بالكلمة الوحيدة:
الذرة.

- هذه ليست مادة، همس.

هذه البداية.

فتح دفتره، حاول تدوين شيء، لكن كل ما خرج كان رموزا، معادلات، خطوطا
متفرعة، وجوها تومض، أصواتا من الماضي والمستقبل.

- كل شيء يؤدي الى النهاية، تتمم.

خرج من الصف، الممر أطول مما اعتاد.

الجدران الزرقاء بدت باردة، كل صورة معلقة، كل وجه ثابت، كل نهاية معروفة.
وصل الى ساحة المدرسة، أخذ نفسا عميقا، ثم توجه الى منزل ماغي، حيث كان ينتظره
ما يعتبر الهدوء قبل العاصفة.

في الطريق، بدأ الحلم يظهر.

ظلال غريبة على الأرصفة، أصوات لا تصدر من أي مكان، وجوه مألوفة لكنها مشوهة.
- هذه ليست المدينة، همس.

هذه خريطة لعقلي، لكل احتمال، لكل خطأ، لكل لحظة يمكن أن ينقلب فيها كل
شيء.

وصل الى منزل ماغي، صعد الدرج، فتح الباب، والهدوء يلتهم المكان.

- ستيف؟ جاء صوت ماغي من الداخل.

- أنا هنا، قال، لكن صوته كان أجوفا، بعيدا عن الفهم.

ظهرت ماغي في إطار الباب، ابتسامتها محاولة للدفع لكن عينيها تبحثان عن شيء لم
تجدهما.

- كيف كان يومك؟

- جيد، قال ببساطة، لكنه لم يكن يقصد الإجابة، كان يقصد الاحتمالات، النتائج
المحتملة، الأخطاء التي لم ترتكب بعد.

اقتربت، لمست يده، وقالت:

- أحيانا لا أحتاج تفسير، أحتاجك فقط.

نظر إليها، والجنون يتسلل ببطء، كالماء الذي يخترق الشقوق الصغيرة.

- وهل تعتقد أني أستطيع أن أكون شيئين في آن واحد؟

سأل بصوت خافت، لكنه يزلزل الأرضية تحت قدميها.

صمتت.

في هذه اللحظة لم يحدث شيء ظاهر، لكن شيء بداخله بدأ ينكسر، ليس في الجدران، بل في ذاته، في حقيقة الاحتمالات، في الخيط الرفيع بين الواقع والجنون.

"اعتذار وفزع"

اقترب ستيف منها أخيراً.

ليس بخطوة جسد...

بل بخطوة رجل خسر معركته الداخلية قبل أن يبدأها.

كان صوته هذه المرة واهناً، كأن حدثه انكسرت على شيء صلب في داخله ولم تصدر صوتاً.

- ماغي...

قال اسمها ببطء مريب، كمن يختبر نطقه قبل أن يسحب منه إلى الأبد.

نظرت إليه.

لم تعاتبه.

لم تسأله.

الصمت الذي وقف بينهما كان أثقل من أي جملة، وأصدق من أي اعتذار.

- أنا آسف...

تابع، وعيناه لا تجرؤان على الثبات في مكان واحد.

- أحياناً... لا أرى الناس.

أراهم كاحتمالات.

كأفكار يجب ضبطها...

لا ككائنات تحب.

لم تجادله.

اقتربت منه، وضعت رأسها على صدره، حيث كان قلبه يدق بإيقاع غير منتظم، كأنه يرفض الاتفاق مع الزمن.

- فقط كن هنا

قالت بهدوء خائف.

- لا أريد تفسير العالم... أريدك أنت.

لف ذراعيه حولها.

وللمرة الأولى منذ سنوات، سكت ذلك الصوت في رأسه.

ليس لأنه اختفى... بل لأنه كان ينتظر اللحظة المناسبة.

ناما معا.

الجسد استسلم.

أما العقل... فانزلق.

لم يأت الحلم كحلم.

لم يكن هناك تشويش.

لا قفزات.

لا عبث.

كان واضحا بشكل مرعب.

وجد ستيف نفسه واقفا في مطبخ يعرف تفاصيله أكثر مما ينبغي.

الإضاءة صفراء، مريضة.

الساعة متوقفة، عقاربها معلقة عند لحظة لا تريد المرور.

رائحة المعدن كانت في الهواء.

ماغي كانت هناك.

تقف قرب الطاولة، ظهرها نصف مستدير، كأنها تشعر بالخطر... لكنها لا تراه.

وكان هناك رجل.

ليس ظلا.

ليس كابوسا غامضا.

كان حقيقيا الى درجة الإهانة.

واقف بثبات بارد.
ملامحه ساكنة، عيناه فارغتان... كأنهما حفرتان لا تعكسان شيئاً.
- لا...
خرج الصوت من ستيف مشروخاً، كأن حلقه لم يخلق للرجاء.
اندفع نحوها.
لكن الأرض تمددت.
المسافة تشققت.
كل خطوة صارت عشراً.
- أرجوك...
لهث.
ركع.
توسل.
- لا تفعل...
الرجل لم يلتفت.
كأن ستيف فكرة جانبية لا تستحق الإدراك.
رفع السكين.
الضوء انكسر على حدها.
صرخ ستيف، والاسم ينفجر من فمه دون استئذان:
- دوروك!
كأن الاسم كان محبوساً فيه منذ زمن طويل، ينتظر فقط أن ينطق.
- دعها!
- خذني أنا!
- افعل أي شيء... فقط لا..
التفتت ماغي نحوه.
لم تصرخ.
لم تبكي.

نظرت إليه نظرة واحدة...
نظرة فهم كامل.
ثم هبطت السكين.
مرة.
ثم مرة أخرى.
الصوت لم يكن عاليا.
كان لزجا.
ثقيلا.
سقط ستيف على ركبتيه.
مد يديه في الهواء، كمن يحاول الإمساك بروحه قبل أن تفر.
- أرجوك...
- أنا هنا...
- أنا أفهم الآن...
لكن دوروك لم يسمعه.
أو سمع... وقرر أن الصمت أبلغ.
عندما انتهى كل شيء، التفت إليه أخيرا.
ابتسامة صغيرة.
باردة.
مدروسة.
- أنت تفهم أكثر مما ينبغي، قال بصوت بلا وزن.
- ولهذا... لن تكون قادرا على إنقاذ أحد.
اختفى.
وبقي ستيف وحده.
مع الدم.
مع الجسد.
مع الصمت الذي لا يشبه الصمت... بل يشبه حكما نهائيا.

استيقظ صارخا.

- لا!

- لا... لا... لا!

رغم البرد القارس كان العرق بغمره.

أنفاسه متقطعة.

يداه ترتجفان كأنهما ما زالتا ممدودتين في الحلم.

ماغي كانت إلى جانبه.

حية.

مرعوبة من صوته.

- ستيف!

- انظر إلي... أنا هنا!

أمسك وجهها بقسوة لا يقصدها، حلق فيها بجنون، كمن يفتش عن جرح لم يحدث.

- كان حلما...

قالت، وهي تحاول تهدئته.

- مجرد حلم.

هز رأسه.

لم يصدقها...

لكنه أرغم نفسه على المحاولة.

في الصباح، كان هادئا أكثر مما ينبغي.

وديعا.

حنونا.

كأن الليل اقتطع منه شيئا ولم يعد.

قبل جبينها قبل أن يغادر.

قبله أطول من المعتاد.

- سأراك لاحقا، سأعود.

قالها وكأنها جملة اختبار.

خرج ستيف من المنزل بهدوء زائد عن اللزوم.
أغلق الباب خلفه دون أن يلتفت.
الهواء في الخارج كان بارداً، ليس برد صباح عادي، بل بردا جافا يشبه فراغا مؤقتا بين
فكرتين خطيرتين.
سار في الشارع بخطوات منتظمة.
كل شيء كان في مكانه:
الأرصفت، الأشجار، السيارات المتوقفة.
العالم لم ينهرو هذا ما أقلقه.
كان يتوقع علامة.
شيئا يقول له إن ما رآه في الليل لم يكن إلا حلما عابرا.
لكن لا شيء.
فقط صوته الداخلي، هادئا أكثر من اللازم.
إنها بخير.
لو كان الأمر حقيقيا... لشعرت به.
ركب الحافلة.
جلس قرب النافذة.
الوجوه من حوله بدت بعيدة، كأنها مرسومة على زجاج.
ضحكات خافتة.
أحاديث يومية.
حياة كاملة تتحرك دون علم بأن شيئا قد انكسر.
راقب انعكاسه في الزجاج.
عينان متعبتان.
ملاحم ثابتة.
- أنت متماسك، قال لنفسه.
- هذا دليل.
وصل إلى المدرسة.

المبنى كان كما هو:

جدران مألوفة، ممرات نظيفة، روتين لا يتبدل.

دخل الصف.

الطلاب كانوا هناك، يتحدثون، يتحركون، ينتظرون بدء الحصة.

وهو...

كان حاضرا جسديا فقط.

بدأ الشرح.

- الذرة ليست أصغر وحدة كما نتصور، قال بصوت ثابت.

- بل نظام معقد من الاحتمالات.

كتب على السبورة.

خطه يخرج مستقيما.

واضحاً.

- ما نراه ليس بالضرورة ما يحدث

تابع.

- أحيانا، حتى الحقيقة تنقسم كالذرة دون أن نلاحظ.

أحد الطلاب كان يدون.

آخر ينظر إليه باهتمام.

ستيف كان يشرح، لكن جزءا منه كان يستمع إلى شيء آخر.

نبض خفيف في أذنه.

توتر غير مبرر في أصابعه.

- وهل يمكن للتجربة أن تخطئ؟

سأل طالب.

توقف ستيف لحظة.

- نعم

أجاب

- أحيانا... الخطأ ليس في النتائج، بل في عقولنا عندما نرفض تصديقها.
في تلك اللحظة رن الهاتف.

لم يكن الرنين عاليا، بل كان مقاطعا... كأنه لا يطلب الإذن بالدخول إلى الواقع.
توقف ستيف عن الشرح في منتصف الجملة.
الطبشورة سقطت من يده، ارتطمت بالأرض، وتفتت بصوت حاد.
نظر إليه الطلاب.

لم يلاحظهم.

نظر إلى الشاشة.

رقم رسمي.

غير محفوظ.

أجاب.

- ستيف غراي؟

كانت المرة الأولى التي يلفظ نسبه فيها.

- نعم.

صمت قصير.

ذلك الصوت الذي لا يأتي إلا قبل الكلمات التي تغير شكل العالم.

- نأسف للإبلاغ...

- الانسة ماغي وجدت مقتولة هذا الصباح.

- نرجو حضورك فورا.

لم يسأل كيف.

لم يسأل أين.

لم يسأل لماذا.

قال فقط:

- أنا قادم.

أنهى المكالمة.

ظل واقفا لثواني، كأن جسده نسي في الصف بينما عقله سبق الجميع.

ثم جلس ببطء على الكرسي.
أحد الطلاب نطق اسمه.
لم يسمعه.
شيء واحد فقط كان يتردد داخله، ليس صرخة... بل همسا باردا:
قلت لك.
الطريق إلى هناك لم يكن طريقا.
كان إعادة عرض.
كل إشارة مرور كان سكيننا معلقة في الهواء.
كل نافذة سيارة تعكس وجهها أكثر شحوبا وأقل إنسانية.
عندما وصل، كانت سيارات الشرطة تملأ المكان.
الشريط الأصفر.
الوجوه المجمدة.
العينان اللتان تعرفان مسبقا أن الداخل لن يخرج كما دخل.
دخل.
لم يحتج أحد أن يرشده.
عرف الطريق.
عرف المطبخ.
عرف الرائحة.
كانت ماغي هناك.
ممددة.
ساكنة.
هادئة أكثر مما ينبغي.
رفعوا الغطاء.
وفي تلك اللحظة... انكسر.
سقط على ركبتيه.
لم يصرخ فورا.

- لم يفعل شيئاً.
ثم انفجر.
بكاء بلا صوت مفهوم.
شهقات تتكسر في صدره.
يداه ترتجفان وهو يلمس وجهها كما لو أنه يحاول إعادة ترتيبها في الواقع.
- أنا هنا...
قالها.
- قلت لك سأعود...
وضع جبينه على يدها الباردة.
- كان حلماً...
همس.
- أقسم أنه كان حلماً...
لم تجبه.
لم يكن هناك دوروك.
لم يكن هناك شيطان.
لم يكن هناك تفسير.
فقط جسد بلا حرارة، ورجل بلا يقين.
لم يبتعد كثيراً عنها عندما سمع صوت القيد.
- ستيف غراي..
قال المحقق بهدوء مهني.
- نرجو أن ترافقنا.
رفع رأسه ببطء.
- لماذا؟
لم يصرخ.
لم يعترض.
- بصماتك على السكين

قالها المحقق دون قسوة.

- وعلى مقبض الباب

- وعلى الطاولة.

نظر إلى يديه.

هاتان اليدان اللتان علمتا الذرة كيف تتكون.

اللتان أقنعتا العقل أن كل شيء قابل للفهم.

- هذا...

قال.

- هذا غير منطقي لقد كان دوروك أقسم لكم أنه دوروك.

- المنطق لا يستدعي هنا.

أجابه المحقق.

- فقط الوقائع.

وضعوا القيود.

لم يقاوم.

كان صامتا... صمت شخص بدأ يفهم لكن بعد فوات الأوان.

(المصحة النفسية)

المصحة النفسية لم تكن بيضاء كما تخيلها.

كانت رمادية.

باردة.

تشبه ممرا طويل بلا نهاية.

جلس ستياف على الكرسي المعدني.

يداه مكبلتان إلى الأمام، لكن ظهره مستقيم.

الغرفة كانت رمادية أكثر مما يجب.

نظيفة إلى حد العداء.

ثلاثة أطباء أمامه.

دفاتر.

نظرات مدربة.

أسئلة تنتظر دورها.

أحدهم كسر الصمت.

- ستيف...

قال بهدوء.

- هل تعرف لماذا أنت هنا؟

ابتسم ستيف ابتسامة خفيفة، ليست ساخرة، بل متعبة.

- لأنكم تحتاجون قصة.

قال.

- وأنا أمتلك واحدة لا تعجبكم.

تبادل الأطباء نظرات سريعة.

- نحن هنا لنسألك عن ماغي.

قال الطبيب الآخر.

- عن علاقتك بها.

- وما حدث تلك الليلة.

انخفضت عيناه للحظة، ثم عاد ينظر إليهم.

- ماغي...

قال الاسم كأنه يختبر صداه.

- كانت الشيء الوحيد الذي لم أستطع تحليله.

- ماذا تعني؟

سأل الطبيب _____ ب.

- كل شيء في هذا العالم يمكن تفكيكه.

أجاب ستيف.

- الأفكار، السلوك، الخوف، الحب.

- إلا ماغي.

صمت.

- كانت غير منطقية.
- تحب دون سبب.
- تغفر دون حساب.
- تطلب وجب وودي... لا تفسد يري.
- دون أحدهم ملاحظة.
- وهل هذا سبب كاف للقتل؟
- سأل الطبيب ببرود مهني.
- رفع ستيف رأسه ببطء.
- أنتم تخطئون عندما تسمونه قتلا.
- قال.
- القتل فعل عدائي.
- انفجار غضب.
- فقدان سيطرة.
- اقترب قليلا، قيوده تصدر صوتا خافتا.
- ما حدث... كان نتيجة.
- نتيجة ماذا؟
- سأل الطبيب الأول.
- نتيجة ذكاء لا يعرف متى يتوقف.
- قال ستيف.
- أنا لم أكرهها.
- ولم أرد إيذاءها.
- لكنك فعلت.
- قاطعه الطبيب.
- ابتسم ستيف مرة أخرى.
- لأنني فهمت أكثر مما يجب.
- قال.

- عندما تدرك أن البشر ليسوا إلا أنظمة هشة... تبدأ برؤية التناقض.
- أي تناقض؟
- سأل الطبيب.
- أنني أستطيع تفسير الكون.
- قال ستيف.
- لكنني أعجز عن تفسير وجود شخص واحد يربك تلك المعادلات.
- فاخترت حل التناقض.
- قال الطبيب بحدة.
- هز ستيف رأسه نفيا.
- لا.
- قال.
- اخترت الهروب منه.
- ودوروك؟
- سأل الطبيب الثالث فجأة.
- من هو دوروك؟
- ساد الصمت.
- ثم قال ستيف بهدوء قاتل:
- دوروك....
- هو العذر.
- توقف القلم.
- عندما يقتل إنسان عادي، تابع ستيف
- يقولون:
- كان غاضبا.
- ضعيفا.
- مريضا.
- نظر إليهم واحدا واحدا.

- لكن عندما يقتل شخص مثلي...
- يجب أن يوجد شيء آخر.
- فكرة.
- ظل.
- كيان.
- لذلك اخترعت دوروك؟
- قال الطبيب متسائلاً.
- أوماً ستيف.
- لأنني لا أستطيع قبول أن شخصاً يفهم كل هذا، قد يدمر الشيء الوحيد الذي لم يكن بحاجة إلى فهمه.
- صمت طويل.
- أحد الأطباء أغلق دفتره ببطء قائلاً:
- ستيف، أنت تعاني من انفصام حاد.
- عقلك خلق شخصية لتحمل الذنب.
- ضحك ستيف ضحكة قصيرة، فارغة.
- لا.
- قال.
- عقلي خلق دوروك ليحمي فكرة واحدة:
- رفع رأسه، وعيناه ثابتتان.
- أن الذكاء.... عندما يترك بلا رحمة يتحول إلى أداة للقتل.
- ساد الصمت.
- وفي ذلك الصمت، لم يكن ستيف مجنوناً.
- كان... واضحاً أكثر من اللازم.
- كتب الطبيب شيئاً في الملف.
- التشخيص:
- انفصام ذهني حاد مع إسقاط ذنب.

- المريض غير مدرك بالكامل لجريمته.
- يعتبر خطرا على نفسه والآخرين.
- أغلق الملف.
- في زنزانته داخل المصحّة، جلس ستيف وحده.
- لا سبورة.
- لا معادلات.
- لا ذرة.
- فقط جدار...
- ونقطة.
- ابتسم بمرارة.
- كنت ذكيا جدا.
- قال لنفسه.
- لدرجة أنني احتجت كذبة كاملة لأعيش بعدها.
- وفي زاوية بعيدة في عقله، لم يخنف دوروك.
- لم يعد يتكلم.
- لم يعد يقتل.
- كان يراقب فقط.
- كفكرة نجحت... ثم تركت صاحبها يتحمل النتيجة وحده.



الفصل الأخير
"الشرح الأعظم وخطيئة العوالم"

"الشرح الأعظم وخطيئة العوالم"

في مكان آخر.

لم يكن هناك صراخ، ولا دم، ولا محققون، ولا مصحات نفسية.

كان هناك صمت أقدم من كل ذلك.

"أرون كرافورد"

كان أرون كرافورد رجلا يمكن أن تمر به في الشارع دون أن تلتفت، ثم تكتشف بعد

فوات الأوان أنك مررت بشيء نادر.

لم يكن جميلا بالمعنى المتعارف عليه، لكن في ملامحه انسجام خفي.

عيناه بلون بني دافئ، كأنهما تحفظان ضوء قديما لا يخفت.

وابتسامته حين تظهر، كانت صادقة إلى حد يربك من يراها، لأنها نادرة.

كان في منتصف الثلاثينيات.

قامته متوسطة.

حركته هادئة، كأن جسده تعلم مبكرا ألا يضيع طاقته فيما لا يستحق.

كان جميلا بالطريقة التي لا تصور، بل تكتشف بعد حديث طويل أو صمت مريح.

لم يكن مغلقا، ولا اجتماعيا بشكل مبالغ فيه.

كان رجلا يعرف أين يقف، ويشبه المكان الذي يقف فيه.

العلم لم يكن هوسه، بل بيته.

مكانا يعود إليه كلما بدا العالم أقل منطقية مما يجب.

أما جورجيا...

فكانت الحياة حين تهدئ صوته.

جمالها لم يكن صارخا، بل مريحا.

ملامحها ناعمة، بشرتها دافئة.

وعيناها رمادية اللون كأنهما يحملان غيما لم يمطر بعد.

كانت جميلة، نعم لكن جمالها لم يكن ما يعلق في الذاكرة أولا.

كانت ضحكتها، طريقة ميل رأسها حين تنصت، والطمأنينة التي تتركها في المكان بعد أن

تغادره.

كانت تعرف متى تتكلم، ومتى تترك الصمت يقوم بعمله بدلا عنها.
لم تكن تطارد أرون بأسئلة، ولا تحاول إنقاذه من أفكاره.
كانت ببساطة... تجلس إلى جانبه.
حياتهما لم تكن استثنائية.
وهذا ما جعلها جميلة.
قهوة الصباح.
نزعات قصيرة بلا هدف.
أحاديث عن أشياء صغيرة لا تغير العالم لكنها تثبت الإنسان فيه.
كانت جورجيا تضحك حين يشرح أرون فكرة علمية بحماس مبالغ فيه، وكان يصمت طويلا وهي تتكلم، وكأن صوتهما لا يعملان معا إلا حين يتبادلان الأدوار.
لم يكن الحب بينهما صاخبا.
لم يكن مليئا بالوعود.
كان ثابتا.
هادئا.
يشبه الاتفاق غير المكتوب ألا يخذل أحدهما الآخر.
حتى في الأيام الصامتة.
كان أرون يرى الزمن كمجموعة احتمالات.
كانت جورجيا تعيشه كلحظة مكتملة.
هو يؤمن أن لكل شيء تفسيراً.
وهي كانت تؤمن أن بعض الأشياء لا تحتاج تفسيراً كي تكون حقيقية.
كان هذا التوازن هو ما جعلهما سعيدين دون أن يعرفا أن السعادة أحيانا لا تكافأ بالاستمرار، بل تختبر قبل أن تسلب.
في ليلة سوداء قاتمة، دخلت جورجيا المختبر، لم تكن خائفة.
لم تكن مترددة.
كانت تدخل المكان ذاته الذي دخلته مئات المرات.
امرأة جميلة، في حياة جميلة، تثق أن الرجل الذي تحبه سيلتفت حين تناديه.

وهذا وحده كان كافيا ليجعل الخطأ غير قابل للمغفرة.
كان المختبر امتدادا طبيعيا لأرون، كما لو أن الجدران البيضاء، والأجهزة الصامتة،
والشاشات التي لا تنام، قد تعلمت إيقاعه قبل أن يصل.

الأضواء الفلورية ثابتة، لا ترمش، كأنها خلقت لتراقب لا لتشعر.
الهواء باردا، مشبع برائحة المعدن والعزل الحراري، وصوت الأجهزة ينبض بنسق
منتظم يشبه قلبا صناعيا لا يعرف الرحمة.
وقف أرون أمام لوحة البيانات، عيناه معلقتان بالأرقام.
منحنيات ترتفع، مؤشرات تتحرك، وزمن يقاس بأجزاء لا يشعر بها البشر.
كان قريبا.

ليس من الاكتشاف، بل من الفهم.
ذلك النوع من التركيز الذي يغلق العالم ويبقي فكرة واحدة فقط تتضخم حتى تبتلع
كل شيء.

دخلت جورجيا المختبر كما كانت تفعل دائما.

لم تغير خطواتها.

لم تتردد.

لم تشعر بالخطر.

كانت تحمل كوب قهوة دافئ، بداخلها تلك الطمأنينة البسيطة التي تأتي من الاعتياد.
رأته واقفا هناك، منحنيا قليلا، يضع قلما في فمه، غارقا في صمته.

- أرون؟

قالتها بهدوء، كي لا تفزعه.

لم يلتفت.

اقتربت أكثر.

نظرت إلى الشاشة.

لم تفهم الأرقام، لكنها شعرت بشيء غير مريح.

- الحرارة ترتفع.

قالت.

- هل هذا طبيعي؟

لم يسمعها.

كان ذهنه في مكان آخر.

زمن آخر.

احتمال آخر.

رفعت صوتها قليلا:

- أرون... الأجهزة تسخن.

اقتربت من إحدى الوحدات.

وضعت يدها قرب الغلاف المعدني.

سحبها بسرعة.

- هذا ليس طبيعيا، قالت بنبرة حاولت أن تبقى هادئة.

- يجب أن توقف التجربة في الحال.

ظل صامتا.

ليس عنادا.

ولا تجاهلا.

بل لأن الدماغ البشري، حين يحبس داخل فكرة، يتوقف عن استقبال عداها.

اقتربت خطوة أخرى.

مدت يدها نحو زر الإيقاف.

وفي تلك اللحظة...

ارتفع صوت حاد، كصرخة معدنية شقت الهواء.

الضوء اهتز.

الشاشات ارتبكت.

والأرقام... خرجت عن أي نمط مألوف.

التفت أرون أخيرا.

رأى وجهها.

رأى يدها.
رأى الذعر الذي لم يكن موجودا قبل ثانيتين.
- جورجيا...!
قالها متأخرا.
الحرارة انفجرت.
ليس نارا، بل طاقة بلا شكل، كأن المكان نفسه انفتح على خطأ لا اسم له.
دفعها بعيدا، أو حاول.
لا يتذكر.
كل ما يتذكره هو الصوت.
الضوء.
الفراغ الذي حل بعدها.
حين عاد الصمت، كان المختبر مكسورا.
زجاج متشقق.
أجهزة صامته.
وهو...
واقف في المنتصف.
ينادي اسمها.
ولا أحد يجيب.
لم تكن هناك جثة واضحة.
ولم يكن هناك دم كاف ليقنعه أن ما حدث حقيقي.
كان هناك فقط غياب.
غياب لا يقاس، ولا يشرح، ولا يصلح.
جلس على الأرض.
يداه ترتجفان.
وعيناه معلقتان بالمكان الذي كانت تقف فيه.
- لم أسمعك...

قالها كمن يعترف.

- لم أسمعك.

في تلك الليلة لم يبكي.

في تلك الليلة لم يصرخ.

جلس أمام المعادلات.

عاد الى الأرقام.

إلى الزمن.

لأن الإنسان حين يعجز عن احتمال الذنب، يبحث عن طريقة ليعيد ترتيب الواقع بدلا من مواجهته.

وهكذا...

لم تولد آلة الزمن من طموح علمي، بل من جملة واحدة لم تفارقه:

لوانتفت قبل ثانيتين... لما حدث شيء.

من هنا بدأ الشرح.

ليس في المختبر فقط...

بل في العوالم كلها.

بعد جنازة جورجيا... تحول أرون إلى شيء آخر.

لم يعد رجلا، بل حفرة تبتلع ذاتها كل يوم.

بدأ يفكر بطريقة محمومة:

لوانعدت لحظة واحدة فقط... ثانية واحدة... لمددت يدي أسرع.

لأمسكتها.

لأنقذتها.

ومع الأيام... لم تعد الفكرة مجرد حلم.

بدأت تتحول إلى نظام.

إلى مخطط.

إلى آلة.

كانت الآلة مزيجا من العبقرية واليأس، تروس وأسلاك ومجالات مغناطيسية وأفكار عن الثقب الزمني المتشعب.

شيء لا يعرف هو نفسه كيف اكتمل.

وفي ليلة ما... شغلها.

لم تعد به إلى الماضي.

بل مزقت الجدار بين العوالم.

انشق الكون مثل ورقة مبتلة... وتسربت منه ثلاثة مسارات أخرى لحياة كان يمكن أن يعيشها.

كان الليل في أقصى حالاته من السواد.

السماء نفسها بدت كأنها تعرف أن النهاية اقتربت.

العوالم الأربعة بدأت تتداعى، تنكسر كقطع زجاج تحت حرارة لا تحتمل.

لم يعد هناك فرق بين حلم ويقظة، بين صرخة ووشوشة، بين حياة وموت.

في تلك اللحظة... تجمع الرجال الثلاثة:

فرانك، جون، وستيف، في نقطة واحدة، نقطة لم يكن يفترض أن يلتقوا فيها أبدا.

جاؤوا إليها عبر الصدع الذي تركته آلة أرون، عبر فجوة في الزمن والوعي والذاكرة.

كانوا ينهارون:

فرانك لا يزال يحمل بقايا دم تشارليز على يد لا تتوقف عن الارتجاف.

جون وجهه شاحب كأن شيئا ما استنزف منه بعد رؤيته لجسد كاترينا المسجى.

ستيف يجر نفسه كمن خرج من قبر، وعيناه تبحثان عن قاتل متخيل يدعى دوروك...

قبل أن يدرك أخيرا أن دوروك لم يكن إلا هو.

ثم جاء هو.

ظهر أرون كما لو أن الظلام انحنى وسمح له بالعبور.

كان يرتدي معطفه الطويل، عيناه غائرتان، وجسده كمن يعيش في تكرار لا نهاية له

من الألم.

لم يكن يشبههم فقط... بل كان يشبه ما يفترض أن يكونوا عليه لو لم يتمزق كل واحد

منهم إلى مسار منفصل.

اقترب منهم، وتكلم بصوت كأن الزمن نفسه خرج من حنجرتهم:
لقد حاولت... صدقوني حاولت.
كل ليلة كنت أصرخ في أحلامكم... كنت أحاول إنذاركم قبل أن تفعلوا ما فعلته.
لكن لا أحد يسمع تحذيرا جاء من كسر في العوالم والزمن.
رفع عينيه إليهم.
كانت تلك النظرة وحدها كافية ليفهموا كل شيء.
"الارتباط العظيم- الحقيقة التي قدر لهم تجاهلها"
مع الشرخ بين الأكوان، تمزق وعي أرون إلى ثلاثة مسارات متوازية:
أصبح فرانك في عالم يمتلئ بالجرائم والكوابيس التي تضربه مع كل نوم.
أصبح جون في عالم طبي يختلط فيه العقل بالهلاوس والذنب.
وغدى ستيف في عالم يتداعى فيه الوعي حتى يخلق قاتلا وهميا اسمه دوروك كي
يهرب من الحقيقة.
لم يعرف أي منهم أنهم مجرد وجوه لروح واحدة... روح حاولت الهروب من موت امرأة
واحدة.
ثلاث تجسيدات لروح واحدة انقسمت بفعل آلة لم يكن يجب أن تصنع.
والأغرب...
أن الشرخ لم يمزق أرون وحده بل تمزقت صورة جورجيا معه:
صارت تشارليز مع فرانك.
وغدت كاترينا مع جون.
وتبعثرت لماغي مع ستيف.
كل واحدة منهن تحمل شيئا من ابتسامة جورجيا... من صوتها... من نظراتها... لكنهن
بلا ذاكرتها.
بلا روحها الحقيقية.
كأن الكون يكرر محاولة إنقاذها... ويفشل في كل مرة.
ثلاثة نساء كن تكرارا لامرأة واحدة... امرأة ماتت مرة واحدة، لكن موتها تردد عبر ثلاث
أكوان مثل صدى لا يريد أن يختفي.

كل الأحلام التي لاحقت الرجال الثلاثة... كل الوجوه المجهولة التي ظهرت على أطراف الليل... كل الهمسات التي جعلتهم يستيقظون مرتجفين...

لم تكن سوى ظل آرون، وهو يحاول عبثا تغيير ما لا يمكن تغييره

"اندماج العوالم الأربعة"

بدأت الأرض تحت أقدامهم تتشقق، لا كأرض... بل كنص يمحوه كاتب غاضب.

السماء أصبحت صفحة سوداء، تحذف منها النجوم كالنقاط.

ثم بدأت العوالم تندمج.

جدران فرانك صارت جدران جون.

ممرات مصحة ستيف دخلت إلى عيادة جون.

غرفة نوم فرانك انصهرت مع صالة ستيف.

كل شيء يتشابك في فوضى لا تخضع لقانون.

لم يعد أحد يعرف أين يقف.

أو أي صوت ينتهي لأي ذكرى.

أو إن كانوا لا يزالون أشخاصا... أم أشباحا في قصة تقاوم النهاية.

في آخر اعتراف-الكلمة التي ختم فيها القدر:

وقف آرون أمامهم، والظلام يبتلعه ببطء.

كانت ملامحه تختفي، كأن الوجود لم يعد يحتمله.

رفع يده...

وأشار إليهم كما لو أنه يشير إلى نفسه في مرايا ثلاثية مكسورة.

ثم قال بصوت هو أقرب للبكاء منه للحكمة:

"لا تصنع حربا من أجل القشة الأخيرة"

صمت.

لم تكن جملة حكيمة.

كانت وصية رجل عرف أخيرا... أن محاولة إنقاذ آخر ما تبقى... قد تقتل كل شيء آخر

معه.

ومع آخر كلمة قالها أرون... انهارت العوالم الأربعة في خط واحد من الضوء لم يبق
من كل ذلك سوى صدى بعيد... يتردد في مكان لا يملك اسما.
وفي قلب ذلك السواد... ظل جورجيا، يتلاشى ثم يختفي.
هو عالم واحد... بلا ذاكرة
لم يكن فجرا حين بدأ الضوء بالظهور.
لم يكن نهارا أيضا.

بل كان شيئا ثالثا... شيئا لا يعرف البشر له اسما.
الضوء في ذلك العالم الجديد لم يكن يأتي من الشمس، بل من شقوق صغيرة في
السماء نفسها تخفي تحت جلدها نارا تلتهب ببطء.
كانت المدينة تبدو مألوفة... لكن مألوفة من نوع مزعج، كأنك تنظر إلى صورة مكان
زرتة مئة مرة، لكنك غير قادر على تذكر اسمه.
نهض رجلا من الأرض المتشقة بصعوبة، ويده ترتجف كأنها تحمل ذاكرة موت ليس
من حقها أن تحمله.

حوله مبان بدأت تنهار كما لو أن شيئا ما نزع من أساسها.
الهواء بارد... لكن بارد بطريقة لا تشبه البرودة، بل تشبه اللمسة الأولى لجسد ميت.
وقف الرجل، وهو يحدق في يديه.
كانت يدها تحملان آثار دم جاف.
دم ليس له.

دم لا يستطيع تذكر من ينتهي إليه.
حاول نطق اسمه.

خرج صوت مألوف... لكنه لم يستطع تخمين من ينتهي إليه:
"ف.؟"

ج.؟

س.؟

أ.؟"

كأن أربعة أسماء تتصارع خلف صوته، كل منها يريد أن يكون الحقيقي.

وفجأة...

(الهمس)

جاء صوت خافت من خلفه:

"أخيرا استيقظت..."

التفت بسرعة.

لم يكن هناك أحد.

الشارع فارغ.

لكن الصوت... لم يكن هذيانا.

الصوت كان يعرفه.

كأنه سمعه في حلم... أو صرخة... أو في لحظة موت.

اقترب من الجدار الأقرب.

كان الصمت كثيفا لدرجة أنه شعر بثقله على صدره.

ثم لاحظ شيئا...

الظل

هناك ظل خلفه.

ظل طويل...

ممتد بشكل غير طبيعي...

كأن صاحب الظل يقف بعيدا جدا، لكن ظله اقترب منه حتى التصق بقدميه.

مد الرجل يده نحو الظل.

وما إن لامسه... حتى أنشق الهواء بصوت حاد أشبه بصرخة طفل.

وظهر وجهه.

ليس وجه رجل.

بل وجه امرأة... امرأة يعرفها... ويجعلها في الوقت ذاته.

كانت عينا اليمنى تشبه عين ماغي.

واليسرى تشبه كاترينا.

والابتسامة تشبه ابتسامة تشارليز... لكن ملامحها العميقة لم تكن لأي منهن.

كانت جورجيا.
ولكن جورجيا بطريقة مشوهة... كأنها تكررت أكثر مما يجب في أماكن لا يجب أن
توجد فيها.
فتحت فمها ببطء، ثم خرج صوت ليس صوتها:
"كان يجب أن تنقذني... مرة واحدة، لماذا تركتني أموت في كل العوالم؟"
تراجع الرجل خطوة.
قلبه يدق بعنف كأن شيئاً في صدره يريد الهرب.
"من... أنا؟"
قالها وهو يلهث.
ابتسمت المرأة المشوهة... ابتسامة بطيئة، مرعبة، كأن عضلات وجهها تتعلم الابتسامة
لأول مرة.
ثم قالت:
"أنت آخر من نجا.
أنت النهاية...
وأنت البداية...
وأنت خطيئتهم جميعاً."
اختفى وجهها فجأة.
وبقي الرجل وحده.
والصوت يعود أقرب هذه المرة:
"أرون.."
عندما سمع الاسم...
انهارت طبقات من الذاكرة في رأسه كما تنهار أرض تحتها مقبرة.
رأى دفعة واحدة:
وجه فرانك وهو يبكي فوق جثمان تشارليز.
يد جون وهي ترتجف فوق جسد كاترينا.
هلع ستيف أمام جثة ماغي.

يد أرون نفسها وهي ترتجف أمام جورجيا.
كلها وجوهه...
كلها حقيقته...
كلها ماضيه الذي انقسم...
وعاد الآن ليلتحم.
صرخ حتى انشق صوته...
لكن الصوت لم يكن صوته فقط.
كان خليطا من أربعة أصوات تتعالى معا...
كأن أربعة رجال حاولوا الخروج من حنجرته في اللحظة نفسها.
ثم...
هدأ كل شيء.
وقف وحده.
وفي صدره... شعور بدأ ينمو ببطء.
شعور بأن العالم الجديد... ليس فيه هو فقط...
بل فيه شيء آخر.
شيء يراقبه.
شيء يقترب.
شيء يعرف كل موت حدث...
وكل حياة كان يجب أن تحدث.
إن كان أرون أول من بدأ... فمن سيوقظه؟

*****النهاية*****